الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

فكرية شحرة

صاحب الابتسامة

رواية

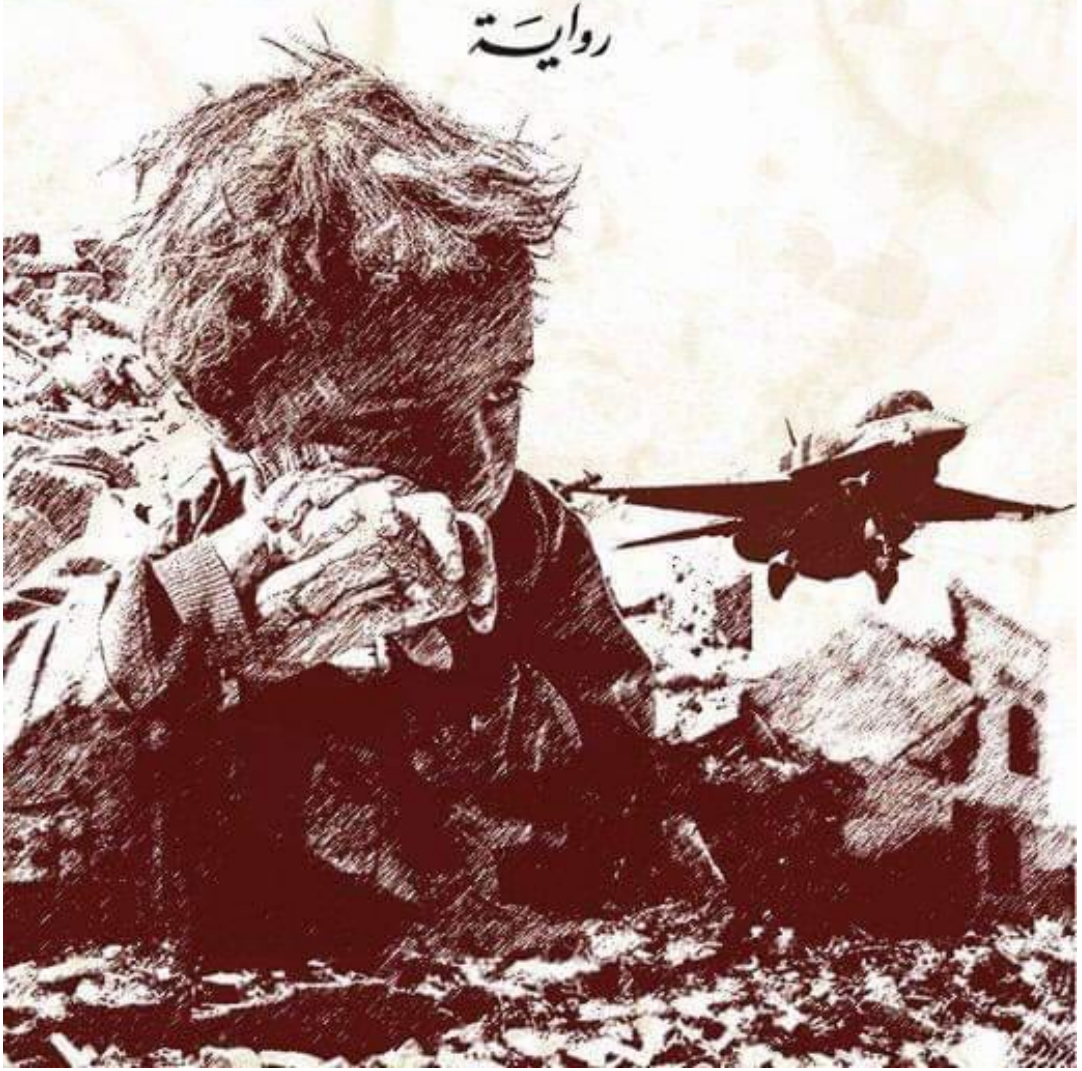

http://t.me/almaktba / المكتبة الثقافية

صاحب الابتسامة

المكتبة الثقافية / http://t.me/almaktba

فكرية شحرة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو 2017 م – 1438 هـ

ردمك 978-614-01-2273-4

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (786233 - 785108 - 785107 (1-961+
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: (786230 (1-961+ – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف (785107 (9611+

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف (786233 (9611+

لن أكون نقطة في نهاية سطر الحياة..

بل سأملأ صفحاتها وجوداً وضجيجاً..

المجانين هم العقلاء في هذا الزمن وأنا مجنونة كفاية كي أكون أعقلهم.

http://t.me/almaktba / المكتبة الثقافية

إهداء..

إلى وطني..

من خَلّقني حبّه وبعثني من رقادي ليسري في عروقي مع دمائي إلى الأبد ويوم الدين..

إلى زوجي وأولادي.. إخوتي وكل أهلي وأصدقائي الرائعين..

إلى كل من غَمرني بتشجيعه ومساندته..

إلى كل من قاسمني شق تمرة الصبر والتضحية..

إلى كل هؤلاء ينمو قلمي ويطرح حباً غدقاً..

لا تكتب وأنت تنزف وجعاً،

ستلطخ الحروف البريئة بالألم.

الأسوأ من كونك لا تكتب أن لا قلب يصغي إليك.

موجع وأنت تقضي سنواتٍ من عمرك وأخرى من صحتك وروحك التي تتفاعل مع الحروف كتفاعل الكيمياء تماماً، فتنفجر دموعك وتنصهر مشاعرك وتذوب أنفاسك، وتمتزج بالكلمات، لتصبحا روحاً أخرى تتنصّل من كثافة المادة، ثم لا يوجد قلب يصغي إليك..!!

لكنني قررت أن أجمع شتات عمري في رواية، أن ألملم أطراف وطني في كتاب، ربما ينام على صدرك كل ليلة حين تغفو أيها القارئ الذي لا أعرفه.

ولماذا أعتقد أن قصة حياتي جديرة بالكتابة؟

وهي قصة رجل يحاول أن يعيش الماضي رغم سوء ما كان فيه، فقط كي ينسى مرارة الحاضر بكل ما فيه من سوء لا يُحتمل.

ربما لأني كنت شاهداً عاش مرارة الأحداث، وهي تزداد سوءاً من حولنا، شاهداً بروحه وقلبه وقلمه، عاش أحداث غيره، ونسي نفسه مرات كثيرة كي يعيش.

إنها الحقبة الزمنية التي لم يعد فيها البشر من يسيطرون، لقد انفجر الورم الذي كنا نحلم بإزالته، وأصبح يلطخنا بحممه شمالاً وجنوباً، وفي طوفان القذارة ذهبت عقول كثيرة كنا نعتقد بوجودها.

ولماذا قصتي؟

http://t.me/almaktba / المكتبة الثقافية

ربما لأنني شعرت أنني الرجل الاستثنائي في المكان الخطأ، ولست وحدي من شعر بكوني استثناءً في قاعدة عريضة من الجمود والرتابة والسير مع التيار.

هذا لا يعني أنني كنت أمضي عكس التيار.. لا.. فهذا غباء.

لقد جعلت التيار كله يسير في الاتجاه الذي أريد حتى غرقت.

وهنا صنعت قصة تستحق أن تُكتب وما زلت أعاني كثيراً كيف أبدأ.

دعني أولاً أجب نداء زوجتي، فهي تلح عليَّ كلما وجدتني مستغرقاً في الكتابة، إنها تجد متعتها في تنغيص حياتي مثلما أجد متعتي في تركها لي وشأني، لهذا حياتنا تنقصها المتعة الخالصة.

خذوها قاعدة حياتية:

يغادرنا الأشخاص الجيدون دائماً، ليبقى السيئون كي يذكرونا بوجوب الرحيل عن هذا العالم.

قد أحدثكم ذات صفحة عن هذه المرأة الجميلة لولا غباؤها حاد الذكاء..

إنها قريبتي، فلا عجب أنها تعرف كل قصص طفولتي وشبابي المبكر، وتظل طوال حياتنا تذكرني بها كشواهد إدانة على نزقي وتمردي الأصيل.

لذا أنصحكم بالزواج من أماكن بعيدة، أو من فتيات لم يسبق بينكم وبينهن أي معرفة أو علاقة أسرية، حتى يمكنكم صنع شخصيات جيدة ومبهرة لحياة جديدة تقبلون عليها.

لقد تزوجتها لأنها أعجبت أمي كثيراً، وكنت بدوري بحاجة إلى امرأة..

أي امرأة فقد كنت في ذلك العمر الذي يتركز العقل فيه في منطقة لا علاقة لها بالرأس.

زوجتي العزيزة امرأة عجيبة؛ لقد استطاعت إنجاب أربعة أطفال مني، دون أن أنوي ذلك، أقصد الإنجاب.

ومع ذلك أصبحت أباً لأربعة أطفال رائعين جداً.

وهذا ليس السر في كونها أعجوبة تستحق التحنيط.

العجيب هو قدرتها العقلية على التحليل والتصديق والتطبيق، ولقد كان هذا جزءاً كبيراً من ذلك التيار المعاكس، الذي روضته خلال عمري القصير.

سأحدثكم عنها لاحقاً، فهي زوجتي، وأظن أنها ستبقى موجودة طوال كتابتي لقصتي، وربما كي تقرأها بعد موتي.

دعوني أعُدْ بكم للبدايات..

وعادة ما تكون البدايات جميلة، لكنني لا أظن أن كل البدايات تكون جميلة.. كبدايتي.

لقد كنت طفلاً قروياً يمنياً خالصاً، وهذا وحده ليس بداية جميلة على الإطلاق.

وكنت الخامس في ترتيب المواليد، تقريباً في المنتصف، وهذا ليس جميلاً أيضاً. فالازدحام البشري ظل يلاحقني فترة طويلة من الزمن في البيت مع إخوتي ونسائهم وأطفالهم بعد ذلك، وفي المدرسة مع تسعين طالباً، وفي الطامحين إلى الأفضل مع الكثير من الانتهازيين والأغبياء. للحقيقة لم يخف الزحام إلا حين أصبحت أكثر رقياً بما أفكر فيه، حين أصبحت لي أحلام بعيدة أسعى إلى تحقيقها، وأفكار كثيرة لا تعجب الآخرين، لقد أصبحت حينها وحيداً، اسماً على مسمى.

تقريباً وحيداً في بيتي وفي مكاني والقاع مزدحم كالعادة.

هل كنت أسعى إلى الوحدة بالتفرد؟ أم كنت أتمنى أن أجد رفقة أفضل لو كنت الأفضل؟

وأنا في هذه المرحلة من العمر أشعر أنني كنت في طريقي، كي أصبح كالسيف فرداً.

وكيف يمكن للمرء أن يشعر بالوحدة، ولديه عائلة لا تتركه يرتاح برهة وحيداً؟

ولديه زوجة تتقن صنع الانشغال والمهام من لا شيء؟ ولديه عمل يجب أن يذهب إليه كل يوم، وأشخاص يقابلهم فيملؤون مسامعه بتفاهاتهم وطلباتهم؟ ولديه واجبات اجتماعية مملة لا تنتهي؟

شخص مثلي عليه أن يتصل بوالدته كل يوم، كي تبارك خطواته التي يخطوها بعيداً عن عينيها الدامعتين على فراقه.

وعليه أن يرسل مبالغ مالية بانتظام لأكثر من جهة، كلها بحاجة إليه، ومن أجلها يجب أن يكسب مالاً نظيفاً.

شخص يحمل الكثير من الهموم والأحزان، الكثير من الأحلام والطموحات المؤجلة تبقيه بعيداً عن متناول وحدة موحشة.

وأخيراً هو شخص يرى وطنه يمد يداً مغلولة بتراكمات الفساد والضغائن، يتمنى أن ينتشلها وهي تشتاق إلى عنقه كي تخنقه.

نعم.. كيف لشخص مزدحم بالآخرين أن يشعر أنه وحيد كجذع شجرة جرفها السيل إلى صحراء قاحلة، ثم مضى وتركها للعطش والبرودة؟

لكنني كنت أشعر بوحدة قاتلة صنعها داخلي فيّ..

داخلي هذا الذي أتحدث معه أكثر من حديثي مع كل هـــؤلاء، ربما قبل أن ألتقيها.

فتحلّ روحها في داخلي، أو أنها تماهت في وطني، وحلّ هـــو في كياني، قبل أن يصبحا هما حلمي المتلاشي، الذي أظل كل عمـــري أسعى خلف تحقيقه أو تخليقه.

لم أعد أدري!!

هل أنا الآن أتحدث مع نفسي، أم معها "عفراء" نصف وطني أو معه هو:

كل وطني!!

هما أنا التي أبحث عنها، ولقد كانا وهمي الجميل لبقية عمري.

فيا كل أولئك الذين حولي تظنون أنني أعيش معكم؟!!

كلا، أنتم كعادتكم مخطئون في ظنكم بـــي، أنـــا لا أعـــيش بينكم، أنا أعيش داخلي دائماً، وفي داخلي أنتم وهمومكم.

لقد كان الغياب عن الحياة مشكلتي وحدي، قبـــل أن تصـــبح الحياة برمتها مشكلة كل أبناء الوطن. مؤسف أننا لم نعد نرى الموت في الحروب مشكلة، بل الحياة نفسها.

الوطن الذي سعينا إلى الأفضل من أجله في نصف ثورة وتماوّنا أن نكمل ما بدأناه، كأننا فتحنا عليه أبواب الجحيم، وعجزنـــا عـــن إخمادها.

بحكم عملي كنت أطّلع عن كثب على مستقبلنا المظلم بخـــوف مما ينتظرنا، وأمل أن تحدث معجزة تنقذنا من هذا المنتظر، كنتيجـــة طبيعية لحيادنا نحو وقوع الظلم من البداية، وسقوط الدولة في الفساد والخيانات.

لقد كانت مهنتي سبباً في قلقي الدائم ومصدراً رئيسياً للبواسير وقرحة القولون.

لكنها كانت أيضاً محور سعادتي، فأنا ذلك الشخص الذي ينظر إليه مجتمعنا البدائي كشخص بلا عمل، أنا المتسول المقنع وبائع الكلام، وناقل الأخبار الكاذبة بمقابل تافه، وأحياناً برأسه حين يطير برصاصة إذا تكلم فيما لا ينبغي، أو عارض سلطة جائرة..

نعم أنا كاتب صحفي، وأدير شركة توزيع لكثير من الصحف والمجلات والكتب في وطن يستخدم الصحف لمسح زجاج السيارات، وأحياناً تُلف به سندويتشات الفول لطلبة المدارس، والصحيفة المحظوظة، تلك التي تستخدمها ربة البيت كسفرة للأكل، فقد ينظر إليها أحدهم صدفة أثناء تناول الأكل.

لقد كانت بداياتنا الصحفية مخزية ومحزنة فعلاً، ويبدو أنها ستمرُّ بأحرج أوقاتها في هذا الاجتياح الغاشم والغبي، كما يبدو في بداياته الآن.

ولكنني حاولت على الأقل أن أكون صحفياً شريفاً.. حاولت كثيراً.

ورغم أنني لست خريج كلية الإعلام والصحافة، لأنني من مواليد مدينة إب، حيث لم يكن في أيامي سوى كلية التربية فقط، لكنّ العمل الصحفي كان يسري في دمي، كالحبر في القلم.

ستجد معظم أبناء مدينتي معلمين رغماً عن أنوفهم، كل شخص كان له طموح حصرته كلية واحدة، إلا من استطاع السفر إلى مدينة أخرى كصنعاء، وهذا ما فعلتُه بعد تخرجي كمدرس لم يحمل الطباشير يوماً.

كان هذا فيما مضى..

الآن أصبحت هناك خيارات ممكنة، وإن كانت قليلة، إلا أنها صارت أصعب على الكثير من الشباب المحبط بسبب الوضع السيئ الذي يتغير إلى الأسوأ.

هذا عن عملي ونظرة العامة إليه، ولكن ماذا عني وعنه؟

لقد كان حلمي منذ كنت يافعاً أن أصبح إعلامياً صاحب رأي، وكاتباً يهدّ بكلماته عروش الظلم، ويقيم عروش الحق، هكذا كانت فكرتي الأفلاطونية عنه!!

ثم أصبحت أراه وسيلة الدخل التي لا أريد ولا أحسن سواها. كان الفرق بيني وبين أحد أخوتي الأكبر سناً أنه يأكل من تعرق جبينه في أشغال بدنية شاقة كعامل بناء..

وكنت أنا آكل من تعرق ذهني أفكاراً كعامل بناء لهذا المجتمع الجاهل.

كلانا كان لنا أعمال شاقة، قد تسبب تصلباً في أوردة القلب أو انفجاراً في شرايين الرأس، وأخيراً ربما القتل في ظل هكذا وضع للبلاد.

لقد كنت أسير نحو ما أريد على عجلة مني، كأن الوقت سيدركني، و لم أنتهِ مما أحلم به، شعور كان يخالجني أنني لن أكمل ما بدأته، وإن كنت وصلت في نظر آخرين لشيء لم يتمكنوا من تحقيقه في فترة عمر وجيزة.

إنشاء شركة توزيع تحتكر توزيع أكثر المطبوعات المؤثرة في الساحة شيء عظيم لفتى قادم من بيئة منسحقة، وتكوين اسم صحفي

محترم في الأوساط الثقافية والشعبية هدف أجمل، لكنها لم تكن كل أحلامي.. لا.. لا سقف لأحلامي أبداً.

أنا فقط من كنت أعرف حجم أحلامي، وأنا فقط من أعرف أنني لن أكملها.

رغم هذا الشعور الذي يجعلني أتخبط أحياناً في حيرتي، إلا أنني كنت أسير برفقة عناية إلهية عجيبة.

لقد كان عندي إيمان كبير بوجود عناية إلهية تشملني في كل حياتي، وكنت أؤمن بوجود الإشارات والعلامات التي يبثها الله لإنقاذي من أشياء كثيرة، كانت نفسي تتواطأ أحياناً كثيرة لحدوثها.

لا لست متأثراً برواية "باولو كويلو" "الخيميائي" التي قرأتها قبل أيام..

فأنا أؤمن بحدوث العلامات منذ طفولتي وشبابي المبكر، وأؤمن بصدق رؤى تأتيني في فترات متقطعة من حياتي تخبرني بأحداث مفصلية سأمر بها، والتي تعني لي الكثير، أذكر تلك الرؤيا التي شاهدت فيها النبي محمداً صلى الله عليه وسلم، والتي لم تغادرني حتى هذا العمر..

حقاً إنني لم أعطها تلك الهالة، وأقصها على المقربين مثل كل رؤيا شاهدتها بعد ذلك، لأنني رأيتها في تلك المرحلة الفاصلة بين الطفولة والشباب، وأنا مقبل على مرحلة البلوغ، رأيت النبي محمدا يبكي حتى تتقاطر الدموع من لحيته، وينظر نحوي بشفقة كبيرة.

كنت في الرؤيا مذهولاً، وأسأل شخصاً بجواري لا أعرفه، هل هذا هو الرسول؟

وأجابني الرسول: أن نعم..

لماذا كان يبكي حتى تتقاطر الدموع من لحيته السوداء؟ لا أدري..

ولم أفكر حينها، إنما الآن حين عاودتني ذكرى أول رؤيا مؤثرة في حياتي أتساءل: لماذا كان الرسول يبكي وهو ينظر نحوي؟

هل يعني هذا أنني سأكون شخصاً سيئاً أو ضالاً..؟

لا أدري وأخشى كثيراً أن تكون دموعه عليَّ وليست من أجلي..

ما أود قوله إنني أصاب بالرعب في أجواء تلك الرؤى، وأستيقظ دائماً قبيل الفجر، وكأنني أحمل على صدري حملاً ثقيلاً يقطّع أنفاسي، وأحياناً كثيرة تملأ الدموع عينيّ.. أعتقد أنني سأرى يوماً رؤيا موتي.. أعتقد هذا كثيراً.

***

ها قد أتى الصباح..

في الصباح يكون كل شيء جميلاً، هذه ملامح يوم جديد، وأنا أعشق الجدة في كل شيء، لهذا أحرص على أن أكون شخصاً جديداً مهما عكر صفوي الأمس.

في الصباح أغادر بيتي دون أن تطرح عليّ زوجتي السؤال الملتصق بفمها منذ أول يوم تقدمت لخطبتها:

- أين ستذهب؟

ذلك لأنها تعرف أنني ذاهب للعمل، والعمل مصدر المال، والمال سر سعادتها، وسعادتها تخفف عني كثيراً من تعاستي.

مؤخراً أصبح كلامها لي كل صباح: انتبه لنفسك، أصبحت صنعاء غير آمنة.

الصباح لا تدركه سوى العصافير، لذا تكون أول من يستقبله على أغصان الشجر، وقلبي عصفور أخضر، يعشق التحليق إلى الشمس.

كان عليّ المرور على منزل الراحل "بكر" كي أتفقد عائلته كما عودتها كل شهر منذ رحيله المفاجئ والصادم، عقب سقوطه من سطح أحد المباني أثناء عمله. "بكر" كان عاملاً بسيطاً تعاملت معه كثيراً في بعض الأعمال، التي كنت أحتاجها منه، وترك بعد موته عائلة كبيرة، تفتقد من يُعيلها أو يهتم بها.

طرقت باب الحوش المصنوع من الزنك الرنان، فأسرعت فتاة

صغيرة، تلوح قامتها من شقوق الباب.

أمسكتْ بمصراع الباب جيداً، كي لا يتراجع للوراء بفعل الريح، وأرسلتْ صوتها للداخل هاتفة:

- جدتي.. الرجل صاحب الابتسامة هنا.. يطلبك.

راق لي اللقب كثيراً.. صاحب الابتسامة كما تراني طفلة أحاول زرع ابتسامة في قلبها، هي لا تلمح الألم الكامن خلف هذه الابتسامة.

تهادت والدة "بكر" في مشيتها، سيدة سبعينية غارت عيناها بكاء لكثرة الراحلين قبلها ممن تحبهم، قالت لي مرة:

- أتدري ما الموت يا ولدي يا وحيد؟ إنه الفقد.. أن تفقد كل مرة حبيباً وتدفنه، ثم تعود دونه، ولا حيلة لك بإعادته أو نسيانه.

لقد سبق أن فقدت زوجها وهي شابة، بعد أن تركها تعتني بستة أطفال قصّر، ذاهباً إلى غربة بعيدة ليموت هناك، ثم توالى الفقد عليها تباعاً، تركها الموت حتى تلك السنّ المتأخرة، كي تكون شاهدة على قسوته وجبروته في قنص كلّ من تحب، وآخرهم "بكر" ولدها البكر.

تحدثت مع والدة "بكر" قليلاً كعادتي قبل أن أعطيها ما تتفضل هي بقبوله لإسعادي، كنت أشتري السعادة منهم، مديناً لهم بها.

وأنا في طريقي للعمل، تمنيت ألا يصادفني طفل من أولئك الذين ملأوا صنعاء فجأة، يحملون سلاحاً يفوق قامتهم طولاً، سيعكر جمال الصباح بحاله المحزنة، وهو يفتش عن شيء لن تراه نظرته القاصرة.

هؤلاء الأطفال البؤساء ما ذنبهم كي تُحشى عقولهم بكل تلك الأباطيل، ويُدفعون للموت دفعاً باسم الجهاد المقدس وتحرير "الجرعة السعرية".

لقد نُكبت اليمن بزعيم هؤلاء الأطفال، لكنّ نكبة اليمن الحقيقية كانت في رئيس الدولة الضعيف، والذي أصبح تحت إقامة جبرية، كدمية تحركها أكثر من جهة.

كنت أتمنى السير على قدمي، لكنّ المسافة إلى مكتب العمل هائلة على شخص يرغب أن يصل مقرّ عمله بكامل هندامه، وما زالت رائحة العطر تملأ أعطافه، لكنني أيضاً لا أخفي متعتي في قيادة السيارة، إنها تكمل شخصية الرجل المسيطر في رأيي، كانت ضمن أحلامي المُجدْوَلة في قائمة طويلة، وما زلت مستمتعاً بوجودها، رغم قول بعض الأصدقاء إنني أصبحت أملك أسطولاً من السيارات من أجل تسيير العمل، ورغم أن وقودها يستنزف ما تصرفه عائلة كاملة من غذاء طوال شهر كامل في موجة غلاء متصاعدة.

أن تملك أسطولاً من السيارات، فأنت مغامر بمالك ليس إلا، فمن سيقودها ليس أنت في كل حال، بل أشخاص قد لا يبالون بسلامتها، رغم أنهم في الداخل.

لقد كنت أجد متعة في العطاء والوهب، لا تضاهيها متعة سوى الحصول على الشيء واقتنائه.

كنت أجد سعادة في إسعاد من لا يتوقعون هذه السعادة بالذات.

لقد كانت سعادات الناس تُحسب في خانة الرفاهية، قبل أن يجتاحنا طوفان المليشيا، الآن أصبح الحصول على الضرورات رفاهية، وتوفير الغذاء من أكبر السعادات.

ألم أقل لكم أن الأمور تزداد سوءاً، وكأننا قبل أربع سنوات فقط لم نخرج لنلتحف السماء، ونفترش الطرقات، نحلم بشيء أفضل، ومستقبل أجمل، فكيف تسارعت أحداثنا للأسوأ بطريقة تراجيدية، كأنه فلم من تلك التي لا أحب مشاهدتها؟

فطوبى لشهداء 11 فبراير فقد تحرروا من أغلال هذا الوضع.

طوبى لكم يا من عبرتم مضيق الحياة، وأنتم تحاولون صناعتها من جديد.

لكم أنتم المجد والخلود، ولنا نحن مضغ الكلام عن التحرر والصمود.

أحاول في كثير من الأحيان تذكر من أين بدأ الخطأ، فيعجز ذهني عن معرفة كيف حدث؟ لقد كنا نسير وفق مشيئة أقوى منا.

إعصار الربيع العربي أتى في غير موعده، ربما لم نكن تلك الشعوب التي تستحق التغيير، أو تتقبله كلها كجسد واحد، لقد كان البعض منا يقوم بثورة مضادة للبعض الآخر، بنفس الحماسة في التضحية، ومع الكثير من الشعارات الزائفة.

ورغم أن أي كارثة حلت بكل بلد عربي تختلف عن البلد الآخر، إلا أن الأيدي الخفية هي نفسها، والمحرك هو ذاته.

لطالما تساءلت ما الذي جرَّ على العرب كل هذا الخراب؟

كل دول المنطقة تقريباً تشتعل بالفتن.. حروب مفتعلة باسم الله، تماماً كما صورتها نصوص الأحاديث المقدسة، التي تبشر بآخر الزمان في أذهاننا، وربما لأننا قدسناها كثيراً، كنا نسير في خطى نهجها، دون أن يتبادر إلى أذهاننا أننا فعلاً نعيش لعبة مخابرات ذكية.

لا ألوم أولئك الذين يردّون فشل العرب إلى دينهم، فوجود تلك النصوص التي تكونت من خرافات وأساطير الثقافات اليهودية والمسيحية، قد شكل العقلية العربية، وأصبحت من صميم الدين الإسلامي، وكلها تدل على أن دين العرب سبب لاجتياحهم وخرابهم.

الظهور الصارخ لكيانين مختلفين يمثلان الإسلام، شيء يدعو للرعب فعلاً..

لماذا يصر العرب على تكرار أنفسهم وأحداثهم هكذا؟

لا أدري! فربما له علاقة واقعية بجينات العرب.

كنت أتمنى وأنا أفكر بسردٍ لقصة حياتي، ألا أنغمس في مجال عملي كثيراً، وهو تحليل الوضع العاري من أي حقائق ثابتة. كنت أتمنى أن أكتب عن ذلك الإنسان اليمني الطموح إلى أقصى حد، والذي أتمنى أن يشهد مستقبلاً جميلاً لنفسه ووطنه، لكنه فجأة أصبح يشهد خراب أحلامه، ودمار وطنه.

أحاول ألا أحشر في قصتي الخاصة هذه أوجاع وطني، لكنها تصرّ على حشر رؤوسها المدبّبة في قلبي، فيقطر دمي حبراً ليكتبها.

نعم كل شيء ينهار هنا..

حتى علاقات الناس بعضهم ببعض قد حملت الشقاق كله، والكراهية المتبادلة..

الأحداث الأخيرة أظهرت الوجه القبيح لمجتمع تماسكه هش ومفتعل، القيمة الحقيقية لكونك إنساناً لا معنى لها في المجتمعات العربية، أنت فقط تمثل عرقك، أو حزبك، أو طائفتك..

لقد كان كل هذا العفن مختبئاً خلف الوقت فقط.

إنها الشعوب التي لا تُربى على احترام إنسانيتها، تندفع كالحيوانات بعضها لافتراس بعض..

إنها أوائل "2015" لكن يبدو لي وكأننا نعود للوراء بسرعة أكبر من تقدمنا السابق للأمام، هذا ما أشعر به، ويشعر به كل يمني تحصَّل على الوعي من تجارب الشعوب.

الطريق إلى مقر شركة التوزيع والإعلام، التي أنشأتُها بكفاح مرير، وإحباطات أمرّ، والتي صارت عرضة للانتهاك بعد وصول جحافلهم إلى العاصمة صنعاء، ومصادرتهم لكل حقوق الإنسان بحرية القول أو التعبير؛ وما يحدث من إغلاق القنوات التلفزيونية، وبعض الصحف، وحجب المواقع، جعلنا ننتظر الدور فقط كشركة إعلامية، تقوم بتوزيع الصحف والمجلات.

وأنا أمضي، أحاول أن أفكر أنها ربما زوبعة وسترحل.

لكنني أظن أنها ستعصف بكل شيء، وستمتد إلى البعيد.

* * *

الرصاص الميت لا يقتل الكلمات الحية..

إنه يرفعها عالياً.. كي يقرأها كل الناس..

وصلت مبنى الشركة.

هذا اليوم هو أكثر أيام الأسبوع ازدحاماً بالعمل، أصبح سماع الأخبار التي يتناقلها الناس عن آخر تفجيرات منازل الخصوم، أو الاعتقالات، أو نهب بيوتهم، والتصريحات من مصادر موثوقة أو خبر من وراء الكواليس، إشارة لشيء ما يلوح في الأفق، تسريب من إحدى الشخصيات، أو تحليل شخص يفهم ببواطن الأمور..

كل هذا هو هدف ملاحقاتي الصحفية، بالإضافة إلى إدارة شركة التوزيع.

لكنني كنت أحلم بصنع شيء آخر لهذا الوطن، الذي تنهكه ملاحقة الأخبار..

كنت أسعى كي تصل أصواتهم المخنوقة إلى من يرفض سماعها، كنت أتمنى طوال عمري الصحفي خلال عشر سنوات أن يقف المظلوم في وجه الظالم، ليطالب بحقه جهراً، ويدعمه الرأي العام في طلبه.

كنت أحلم أن يظهر هذا الصوت، الذي يضيع بين أصوات الباطل والظلم والسرقة والنفوذ..

لكن الآن.. أصبحنا نلهث خلف حقيقة تطمئن رجل هذا الوطن المنكوب، أو تحذره مما ينتظره من دمار، لو أنه انجرّ خلف شعارات زائفة تُطلق لنصرته، وهي تسوقه إلى الموت.

حين وصلت مقرَّ الشركة كان الحارس أول شخص صادفته، "رائد" من "ريمة" المدينة المنسية، ومع ذلك وجدته يتغنى بها بصوت ملؤه الحنين، لعله يحنُّ لمن هم هناك أكثر من أي شيء، زوجة حديث الزواج بها، فالوطن هو من نحب دائماً:

- صباح الخير يا رائد.. هل حضر أحد؟

نهض من مكانه على عجل، وهو يفتح الأبواب أمامي:

- لا يا أستاذ وحيد.. أنت أول الواصلين.
- لا بأس.. اشترِ ما يكفي لإفطار الجميع، ولا تنس برَّاد الشاي الخاص بي.
- أمرك أستاذنا.. لحظات حتى يصل أحدهم، ليفتح البوابة للآخرين ثم أذهب.

كنت أحب الجلوس كثيراً في المجلس العربي، الذي حرصت على وجوده كركن مهم في مؤسستي، ففيه نعقد جلسات القات والنقاش والصفقات. لكنني ذلك الصباح دخلت حجرة مكتبي بشوق عجيب، أتأمل كل قطعة أثاث انتقيتها بنفسي بعناية، كأني أنتقي صديقاً للعمر، يحفظ أسراري وزلاتي الصغيرة. أنا من ذلك النوع الغريب الذي يرتبط بأشيائه بعلاقة حميمية، فيفرح لنظافتها ورونقها، ويحزن كثيراً لقِدَمِها واهترائها أو فقدها.

كل قطعة أثاث هنا لها ذكرى جميلة مع حَدَثٍ صاحبَها أو رفيق اشتريتها بصحبته؛ مجلس القات العربي اشتريته بصحبة "فخري".. قبل أن ينفطر قلبي برحيله المفاجئ. ذلك الرجل كان له أقوى تأثير عليّ في كل حياتي، لقد كان رفيق الشاب القروي الذي كنته، وكان مرشدي الذي لم يخذلني.

"فخري" كان توأم الروح الذي ذهب بذهابه شيء من هـذه الروح، كان تعارفنا عادياً في مقيل قات كثيراً ما يلتقي فيه غربـاء، لكن "فخري" كان آخر اليساريين الشـرفاء في زمـن التوجهـات المختلطة بالمصالح، كان حديثه في ذلك المقيل آسراً لشاب في مقتبـل العمر، جلبته روح المغامرة إلى مدينة كبيرة، يضيع فيها من يحملـون وجهاً واحداً، ويعتقدون أنهم دائماً على صواب.

يومها تشربت حديثه عن الحقوق والحريات، وناقشته أكثـر في كل ما قال، وأظنني تركت في نفسه ذلك الأثر الـذي تركـه فيّ، لذا لم يكن عجيباً أن نخرج معا لشرب الشـاي بالحليـب في أحد أزقة صنعاء القديمة، بعد جلسـة مقيـل طويلـة النقـاش والحديث.

و لم نفترق أبداً في رأي أو مكان، حتى سافر تلك السفرة، الـتي افترقنا بسببها بين شخص مات في حادث سير، وشخص يسـير في حادث حياة.

وأنا أتذكر غيرة زوجتي من أثاث مكتبـي، ينتابني الضـحك، لتفكيري أنني قد أتزوج عفراء يوماً ما.

زوجتي العزيزة تغار من كل شيء يحصل على أخطر حقوقهـا: اهتمامي ومالي.

لم تكن لتدرك ذلك الرباط الروحي بيني وبين جهاز اللابتـوب مثلاً، فكيف تفهم ماذا يعني لي هذا المكان؟

من هذا المكان أدير أحلامي وأحققها، ومن هنا أنظم شـؤون كوني الخاص، وهنا أتلقى أيضاً إحباطات كثيرة وصدمات عديـدة، وهنا كوّنت صداقات خالدة، وهنا أيضاً التقيت عفراء ذات صـباح

أشرق بها مكتبـــي، حين أتت من أجل توزيع رواية لهـــا بوســـاطة شركة التوزيع خاصتي.

امرأة ليست ككل النساء..

أحياناً نقابل شخصاً ما لغرض عابر، ونظن أننا سنلتقيه وتنتـــهي القصة، لكن في لقائي بها بدأت القصة التي لم تنتهِ. قصتي الخاصـــة، والتي عايشتها بكل حقي في الوهم.

عفراء.. كانت مثل كل شيء أسعى إليه لمتعة الكفاح، وأخشى ألا أحقّقه.

كانت امرأة حالمة من جنوب الوطن، مطلَّقة، وأنـــا لا أعـــاني مشكلة نحو النساء المطلقات، فربما كنَّ ضحية لتجربة فاشـــلة لسْـــنَ السبب في فشلها.

امرأة عدنية مشمسة ودافئة حين تأتي هنا لزيارة صنعاء، يغادرها الصقيع، وتعود هي محملة بحكايات الشمال البارد، لتطرزها بكلماتها العذبة.

في نقاشي معها ذلك اليوم، اكتشفت نوعاً مختلفاً من النســـاء، تجمع كل فصول العام، فيها برودة الكبريـــاء، وحـــرارة الصـــدق، وعصف الكلمات، والطباع النارية، امرأة يشدُّك تناقضـــها الـــبريء كطفلة تتعلم المكر بذكاء متعثر.

ربما.. ربما هي سهام الحب التي فقأت عينيّ، وأفسدت الرؤيـــة، لكنَّها رحلت ذلك اليوم، وأنا أرجوها أن تكرر الزيارة، وأن تشرّف مكتبـــي وشركتي بأعمالها.

لقد أصبح للقاءاتنا الثقافية بعدَها ألقٌ لا يشبهه إلا زيارة الجنـــة، ورؤية جزاء الصابرين فيها، كانت تدنو كأجمل وصف لروح أنثـــى،

وتنأى فتسلب روحي بابتعادها، لكنها الآن بعيدة، فزادتني ببعـــدها خواءً ووحدة، لقد عادت إلى مدينتها بعد اجتياح المليشيا للعاصـــمة صنعاء، قالت لي مودعة:

- صنعاء لم تعد تُحتمل، أصبحت أكثر صقيعاً ووحشة.

ما زلت أتواصل معها بريدياً كل يوم، ربما نلتقي يومـــاً مـــا في وطن أفضل، ليس فيه شطران أو قضيتان، بل وطن واحد، وقضـــية مقدسة واحدة.

علا الضجيج في أروقة المكاتب عندما اجتمع الشباب، وبـــدأوا بتناول الإفطار في حماسة، وهم يتبادلون النكات السياسية.

نحن شعب عظيم في النكتة السياسية، بل شعب خارق في هـــذا المجال، يمكن لهذا الشعب أن يُطلق عشرات النكات حـــول مســـألة مصيرية تواجهه، حتى ينسى تماماً خطورة هذه المسألة علـــى أمنـــه واستقراره.

لتاريخ النكتة السياسية مذاقه الخاص في اليمن، إنها طازجة أكثر مما يتصوره العقل، تتكاثر النكات، وتظهر بظهور الحدث، وكأنهـــا أُعدت قبل حدوثه، أو تسابقه في الظهور.

* * *

صنعاء الحافلة بالضجيج أصبحت تخشى الظلام الذي يزحف على قلبها، لم يعد ليل صنعاء ممتعاً ومختلفاً عن ليالي مدينتي الصغيرة إب، عشقت صنعاء لرؤية الحياة فيها ليلاً ونهاراً، لكنها الآن تدّعي النوم باكراً، كي لا ترى الظلام في مساءاتها المقمرة.

لقد تعود الناس على اختفاء الكهرباء من حياتهم، باستسلام العاجز عن فهم لماذا يحدث هذا؟

هذا الشعب أصبحت معاناته أسطورية كصموده، يتكيف مع مستجدات الحال بشكل يُحسد عليه، فمن السخف أن تشكو من انعدام أساسيات الحياة كالكهرباء، في بلد يتم فيه فصل الأرواح عن الأجساد ببساطة إطفائك زراً كهربائياً.

عادت النساء إلى الحطب كوقود لإعداد الطعام، وعاد الجميع لسيقانهم كأفضل وسيلة للانتقال إلى أماكن أعمالهم ومدارسهم، وممارسة حياتهم.

لا شيء يوحي لك بأن هناك شيئاً تغير في شوارعنا، سوى نقاط التفتيش المتناثرة في كل زقاق وركن.

تشعرك بالقلق وعدم الأمان، بحجة الحفاظ على سلامتك. كانت النساء أكثر خوفا من نقاط التفتيش التي انتشرت لتتصيَّد الرجال، يتندر الناس أنها جُعلت لهم وليست عليهم، ولكنها قد تنتهك حريتهم، أو تقتل بعضهم صدفة، أو تهين أعراضهم للتأكد والحماية ليس إلا.

لكن المؤلم أن من يقف فيها هم أطفال شعثٌ يعتنقون أسلحة رشاشة على مقاس أطوالهم، ويعتقدون فعلاً بأنهم يحفظون الأمن، ومصرون على تفتيش الجميع باحترام أحياناً، وبغلظة أحياناً كثيرة.

إنهم أكثر الضحايا ومن يسقطون كالزهور من أجل العجائز خلف الكواليس.

لا يوجد في اليمن ما يُسمى بالطفولة منذ زمن طويل، فلطالما انتُهكت الطفولة في أعمال شاقة أو معاملة قاسية أو زواج مبكر للطرفين أحياناً، لكنهم في زمن المليشيات اقتيدوا للموت في أبشع صورة. كانوا وقوداً كأغصان صغيرة يابسة من الجوع والفقر والجهل، تم إحراقهم من أجل دخول الجنة، أو الحصول على مبالغ تافهة، واعتمادهم كجنود في جيش الأطماع الكثيرة.

الأحداث في وطني تجعلني عاجزاً عن التقاط أنفاسي، يبدو أنها مسرحية سريعة الإيقاع عنيفة الحركة، لا تشبه الأفلام القديمة البطيئة الصامتة.

فضجيج الأحداث هذا يحرمك من أن تفكر مع نفسك ماذا جرى قبل أيام.

المظاهرات الرافضة للانقلاب تجوب شوارع المدن الكبرى، وسقوط ضحايا هنا وهناك، وعمليات تفجير انتحارية وعبوات ناسفة، لم نتخيل حدوثها في مساجدنا أو جامعاتنا، يذهب فيها الأبرياء دائماً، ويبقى المخططون للتباكي وحصد المكاسب الدموية.

هروب رئيس الدولة المثير، وصعود مجلس ثوري للحكم، لم يكن يعنيني كثيراً..

فربما لا يختلف أحدهما عن الآخر إلا بشرعية الوصول، سيل الاحتجاج الساخر في الصحف والمواقع، والتي أُغلق الكثير منها، بسبب مواقفها الرافضة لانقلاب على رئيس منتخب، كل هذا لم يمنعني من الاستمرار في الكتابة، وتنبيه هذا الوطن للقادم الأسوأ، وانتظار دوري في التعسف الظالم.

أصبحت الانتهاكات تفيض من صحفنا شكوى ونواحاً، كي تحترق بما فيها من أقلام..

تراكم الألم في قلبي لاعتقال الكثير من زملاء المهنة، وتعذيب آخرين حتى الموت. انتهاكات هذه المليشيات الانقلابية ضد الصحافة والصحفيين لم يسبق لها مثيل في تاريخ العرب، يكرهون القلم وكاميرا التصوير، وكأنهما سلاحان مصوبان إلى حلوقهم وعقولهم.

أصبح التنقل أمراً عسيراً، وأنت تفكر أنك ستصبح هدفاً لهمجية لا تفرق بين الصواب والخطأ..

هل وصلنا عمق النفق؟ أم أننا في البداية.. حتى الآن كل شيء مختلط.

***

المدن تتساقط كأغصان يابسة لا يربطها بشـــجرة الحكـــم سوى وهم الالتصاق، كان سقوطها أمراً مُعدّاً له بدقة، فتوالـــت كثمار ناضجة في حجر كهنوت قديم بحلة جديدة من الشـــعارات الزائفة..

حين وصل الطوفان مدينتي إب..

أدركتُ أن هذه المدينة الخاملة التي تعيش خارج الزمن دائمـــاً ستكون ثمرة فاسدة بمن فيها من مشايخ البيع والشراء..

لقد سقطت بزفة شهيرة جعلتها مثار تندر أهالي المدن، حفـــل راقص على أشلاء حلم الكرامة.

خرج أعيان المدينة من حزب الرئيس المخلوع لاستقبال الطغـــاة القدامى الجُدد، بضرب الطبول ورقصة البرع على مشارف المدينـــة، بعد أن اصطدم بهم الأحرار في مواجهة رصاصات داميـــة خـــارج المدينة، لتخمد تلك الفزعة تحت أنياب السلام.

فلا عجب أن غادرها الشرفاء من أبنائها، يناضلون لاســـتعادة الكرامة المفقودة في جبهات منتشرة في كل الوطن، كانوا هنـــاك في مأرب وفي تعز ينشدون الحرية.

الخوف من سقوط الأبرياء دافع شريف للهروب مـــن موقـــف مشرف.

هذا الموقف المشرف هو الذي أدمى تعز كثيراً، حتى كرهـــتْ الشرف المخضّب بالدماء..

تعز تلك المدينة الحالمة التي تعانق جبل صبر، والتي أُطلق عليها في غابر الأيام لقب عاصمة الثقافة، لقد كانت مضرب المثل في تمدن رجالها، وعجزهم عن حمل السلاح.

وصارت مسرحاً للموت من أجل قرار مشرّف بالمقاومة، ورفض اقتحام المليشيا للمدينة، وفرض سلطة الانقلاب من خلال مشرفيها في كل مرافق الدولة في كل المدن.

كان قرار المقاومة في حالٍ لا تعني فيه المقاومة سوى الموت تحت إشراف دولي ليس إلا..

لقد دفع أبناء تعز من الأهالي الثمن الأغلى سعراً لحرب تتسع وتضيق، بدافع حقد دفين ضد هذه المدينة بالذات.

لقد كانت حرب استنزاف من الطرفين، الخاسر فيها الوطن.

قصص الموت التي تتناقلها مواقع التواصل الاجتماعي تجعلك تقف مشدوهاً أمام حيوانية الإنسان، حين يعلن الحرب على الحياة.

يمكنني أن أتحمل قصصاً موجعة عن الموت قتلاً في ميادين المعارك، أو ميادين الحياة، لكنني لا أحتمل قصص القتل جوعاً وحاجة، قصص العجز وذل السؤال، فأن تموت كإنسان يعيش بين حيوانات متوحشة أنانية، أشد كربة من أن تموت كحيوان يسعى للبقاء كإنسان.

في مدينة محاصرة لن يكون هناك سوى الموت جوعاً وعطشاً أو الموت قتلاً.

استمر القصف على المدينة المقاومة من قلعة القاهرة التاريخية، وسقط الضحايا من الأبرياء الآمنين، وهم في بيوتهم وشوارعهم، وارتقت أرواحهم ربما غير مصدقة أن هذا يحدث فعلاً..

ما زال مرأى تلك الفتاة التي أخذت القذيفة نصفها الأسفل كله يتراءى في مخيلتي، أولئك الأطفال الصغار الذين تمزقهم القـــذائف.. يذهل قلبـــي لرحيلهم المؤلم وحزن أهاليهم، وعجزهم عن الهـــروب بهم إلى حياة بلا حرب أو أحقاد.

النزوح المهول الذي حدث في هذه المدينة الوادعة أربك المدينـــة الأقرب إب، لقد تدفقت عشرات العائلات من تعز، هروباً من حقد يتدفق بقوة أكبر.

* * *

ماذا سيحدث بعد هذا الخراب لشعب اكتشف أن لا جيش له، أو أن جيشه مملوك لأسرة حكمته عقوداً، ولن تتركه بسهولة بعد أن تنكر لفسادها.

هل كان طوق النجاة ذلك القرار الذي جمع العرب كلهم لأول مرة على كلمة واحدة، قرار اتخذته دول الجوار بعد هروب الـــرئيس مرة ثانية إنما إلى الرياض، بعد قصف قصره الرئاسي في عدن بمنطقـــة "المعاشيق" فلجأ للخارج، كي ينقذ البلد الذي لم يحافظ عليه، وهو في الداخل.

كان قراراً مفاجئاً أربك المشهد كله..

أكثر من عشر دول وعتاد حربـــي وغطاء جوي هدفه إعـــادة الشرعية للرئيس الهارب، وإنهاء هذا الانقلاب الغاشم، وإيصال رسالة باذخة القوة لمن يقف خلف هذا الانقلاب من دول تسعى لتمديـــد نفوذها للعمق العربـــي.

ذلك الصباح استيقظ من كان نائماً خارج العاصمة على خـــبر قصف قوات التحالف لمواقع المليشيا في صنعاء، أنا لم أكن نائماً حتى أستيقظ، أو أنتظر من صوت لم أعرفه من قبل كي يـــوقظني، لقـــد كانت أصواتاً مروّعة ومباغتة، جعلت كل أهالي صنعاء تنسى جميـــل أيامها لفترة زمنية طويلة.

لأول مرة تشهد هذه المدينة، ولاحقاً كل اليمن، قصفاً جويـــاً، لقد كان الرعب المسيطر على الناس مروعاً، وإن خالجته فرحة قلقـــة

أن كابوس المليشيا تحصّل على صفعة مدويّة هزت صلفه وجبروته. كان الانتشار الحاصل لهذا الوباء الرجعي المسلح يجعلك تقف عاجزاً عن فهم كيف تم؟

إنه أشبه بانتشار الأوبئة المرضية كالطاعون أو الكوليرا.

فخلال ست حروب خاضها النظام البائد ضد هذه الجماعة في عقر دارها، كان هناك تعتيم وحظر للأخبار، فلم يعرف حجم خطرها أو غاياتها، ولعل من المضحك المبكي لسياسة القتلة، أنّ من هيأ لهذه المليشيا الانتصارات والاجتياح، هو ذلك النظام البائد والحاقد من قِبل الرئيس السابق.

في حوار موفمبيك قبل الاجتياح، كانت المحاولة الباهتة لرتق الشرج الذي انتثرت منه هذه الجماعة الميليشاوية بكل قبحها، لقد طالبت، كمكون باسم أبناء مدينة صعدة، الدولة بتقديم اعتذار لهذه الجماعة الشيطانية، كممثلة لمظلومية صعدة خلال الحروب الست.

يومها هطلت دموع الناشطات والناشطين الحقوقيين تأثراً من هذا الموقف العاطفي، وتسارعت نبضات قلوب الشعب اليمني، لشعورهم بقسوة الدولة، خلال ست حروب، كان فيها الزعيم يلعب بالبيضة والحجر، ليوازن بين قوتين كلتاهما تخيفه..

للأسف كان هذا هو التفكير الغالب أو المسيطر على غالبية الشعب اليمني.

أن جماعة الحوثيين هم صعدة، وأن صعدة هي جماعة الحوثيين.

كثيرون لم يكونوا يعرفون ما هي الحوثية، وماذا فعلت خلال اثنتي عشرة سنة في صعدة.

الجرائم الفكرية لخطب "حسين الحوثي" الأب الروحي لهذه الجماعة لا تقل بشاعة، وانتهاكاً للعقول عن جرائم اغتصاب المزارع والأراضي، وقتل كل من يفكر أو حتى يصل بقرابة لمن فكر بمعارضة هذه الجماعة الفاشية.

عزل مدينة صعدة كمستوطنة لنمو سرطان هذه المليشيا لم يكن بمباركة أبنائها، كما يخيل إلينا نحن الذين لا نعرف تضاريس قرى وُلدنا فيها، أبناء صعدة عانوا كثيراً فيما نحن بانتظار دورنا.

لقد عاثت هذه الجماعة فساداً لا يصدَّق داخل مدينة مطوقة بجهلنا ما يحدث هناك، مطوقة بست حروب، صُبت كالحمم على رؤوس الأبرياء والمجرمين على حد سواء.

وما حدث بعد تهجير أهالي دماج وتشريدهم وقتلهم ونحن سكوت.

ما هو إلا بداية العقاب.

الاعتذار المؤثر الذي كان اعترافاً بشرعية جماعة مسلحة، والذي طالبت هي به، لا يثير السخرية فقط، بل ويستجلب اللعنات على كل من اعتذر لها.

الآن على الشعب اليمني كله أن يقدم اعتذاراً لأبناء صعدة، وليس لهذه الجماعة.

وهو يقدمه كل يوم، ولكنه اعتذار معمّد بالدم والخزي، كون صعدة تُركت كابن تنكر له أهله.

إذا كان نظام الزعيم الفاسد قد حرص على شيطنة مدينة كمأرب وقبائلها العظيمة، فإنه قد باع صعدة وأبناءها للشيطان، لقد سلمهم كراع ومسؤول عن رعيته وصاحب دولة لقمة سائغة

لانتهاكات هذه المليشيا من أول نقطة تفتيش وُضـــعت، ومنـــذ أول انتهاك صارخ لمفهوم الدولة.

وما الحروب الست إلا وزر آخر في حق أبناء صعدة نفســـها، فقد كانت سبباً جزئياً لقناعة بعض أبنائها بعدم عدالة الدولة معهـــم، وانخراطهم في صف هذه المليشيا.

* * *

ذلك الأسبوع كتبت مقالاً حماسياً عن تفاؤلنا الكبير بـــالأخوة الأشقاء في التحالف، الذين يحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه مـــن هيبـــة الدولة المسروقة.

بعد توزيع الصحيفة التي كتبت فيها مقالي، حدث ما توقعناه، تم اقتحام مبنى الشركة، ومصادرة كل ما تحتويه من مطبوعات مُعـــدَّة للتوزيع، وكل ما احتوته حتى سلال القمامة، بما فيهـــا كـــل تلـــك الأجهزة والأثاث، الذي عنى لي الكـــثير، تم نهبـــه وهـــو صـــامت مستسلم..

أسطول السيارات الثلاث الخاصة بالتوزيع تم نهبها باهتمام.

تم اعتقال موظفَيْن كانا يقومان بالتحصيل في إحدى المكتبات، بعد مماطلتهما وإجراء اتصال هاتفي، جاء على إثره "طقم" تناولهمـــا صفعاً وركلاً، واقتادهما إلى قسم شرطة المنطقة.

اتصلت هاتفياً بكل من وجدته قادرا على مســـاعدتهما، كـــان إخراجهما بعد أيام من التحقيقات حول تمويل شركة التوزيع، وعـــن مديرها صاحب المقال الخائن العميل، وأرقام هواتف من يعملون بها، وكتابة تعهدات خطية بعدم الاقتراب من توزيع الصحف والمطبوعات بكل أنواعها.

عائلتي أيضاً حصلت على زيارة كانت الأســـوأ في نفوســـهم، كنتُ حينها مختفيا عند "أحمد النويرة" ومعي شائف صديقي، الـــذي تشرد قبلي، كونه من قيادات حزب الإصلاح، كانا قد أصرَّا على ألا

أتواجد في منزلي، لمعرفتنا أن الزيارة ضرورية للبحث عني. تم نهب كل ما استطاعوا نهبه مع سيارتي الخاصة.

كان إحضاري لعائلتي بعد تلك الزيارة وإخلاء سكني وتسليمه للمؤجر، هو أكثر ما يقلقني ويشغل بالي، وكان أحمد النويرة يقوم بتدبر الأمر بمهل، كي لا يلفت أنظار الوشاة وما أكثرهم.

لقد نسيت فكرة انهيار كل عالمي، ومصادرة ما أملكه، وخفت على أولادي وزوجتي، زوجتي التي حرصت على أن تقوم بتهريب أكبر أولادنا خارج البيت، حتى لا يأخذوه، ألم أقل لكم إنها امرأة ذكية؟

لم يكونوا ليفرقوا بين طفل في الخامسة عشرة، بالكاد يترك ألعاب الفيديو من بين يديه، ومقاتل في الخامسة عشرة من مقاتليهم، بالكاد يحمل السلاح بثبات.

كانت أيام ترقب وقلق، لكن الندم لم يتخللها، شعرت أني قمت بواجبي كإنسان قال رأيه على الملأ بصراحة، وإن أجبرته الأيام أن يدرك أن ما حكَّ جلدك غير ظفرك، وأن الطائرات التي تلهو في السماء بقذف الصواريخ، لا يعنيها كثيراً ما يحدث على الأرض.

* * *

الرفاق يتسربون من الوطن كما تسرب أسلافهم، حين عبث الفأر بالسد العظيم.

يتركونه ليتحدثوا باسمه دون أن يشعروا بألمه..

كي تنجو أوطانهم الصغيرة، هربوا بعيداً عن قوة غاشمة تدكُّ في طريقها شعورنا بالوطن، وبكل ما حاولنا صنعه، إن بقوا سيكونون كمن قذف بنفسه في حمم الهلاك، لقد تفرق شمل الكثير.

هناك من بقي في مأرب، المعقل الأقوى لشرعية الدولة، وهناك من غادر البلاد إلى أكثر من دولة.

أصبحت أعدّد الراحلين منهم، وكأننا لن نلتقي يوماً، آلمني رحيل رفيقي "شائف" إلى المملكة مع أفواج المغادرين، لا أدري كيف ستطيب لي الحياة دون رفقته، وقد كان يجمعنا النقاش في كل مقيل قات، مكانه في مجلس أحمد النويرة يبدو متسع الفراغ، بعد أن كان يملأه بأحاديث الصبر على الابتلاءات، واحتساب الأجر من الله، أحاديثه عن تدافع الأمم لحكمة من خالقها، وعن فرعون الذي يتكرر في كل عصر وزمان، وكيف أن مصيره البائس ينتظره، مهما تجبّر وأفسد في الحرث والنسل، صراخه في وجهي أن أترك السجائر، فالهموم كفيلة بتدمير هذا الصدر.

- صدقت يا شائف. الهموم تكفلت بملء صدري بسحائب الحرائق والهموم والفقد.

لقد حاول شائف كثيراً إقناعي بالسفر مع عائلتي كما فعل هو، لكنني لا أستطيع أن أترك خلفي هذا الوطن، الذي يتشبث بي كأني قطعة خشب وهو يغرق، ولأني قطعة خشب، لا أستطيع أن أحمل سلاحا لأقاتل، حتى سلاح كلماتي لم يعد يعني في وطني سوى مزيد من الضجيج.

في هذا المنزل المؤقت الذي ضم أهم شيئين في حياتي حاليا، عائلتي وجهاز اللابتوب الخاص بي، أقضي كل وقتي في التأمل والتفكير، وكتابة مقالات قد لا تعني للآخرين ما تعني لي..

رسائل عفراء تزيد جراحي التهاباً، وهي تصف لي ما يحدث في مدينتها الموجوعة من جرائم الحرب، عفراء التي تركت صنعاء مدينة الوحشة الباردة، ليدركها المتوحشون هناك، ينالون من وجه الوطن المشرق خراباً وتدميراً وقتلاً وتشريداً.

منطقة "كريتر" التي تسكن فيها عفراء تعرضت لأبشع عملية تدمير ممنهجة بحقد عجيب ضد كل ما يمت لحضارة الإنسان، تلك المدينة التي عاش فيها اليهود والنصارى يوماً وعمروها، دمرها برابرة الشمال، وكأن اليهود ما زالوا يقطنونها.

أُحرقت مكتباتها، ونُهب متحفها الكبير، ثم أُحرق مبناه، واعتلى القناصون جبالها لقتل كل حياة تفكر بالاستمرار في العيش، فتحتُ صندوق بريدي لتطالعني رسالتها العابقة بالحزن:

- (عزيزي وحيد سأضطر للنزوح عبر البحر، فلم يعد يسكن مدينتي سوى الموت والدمار، إنهم يقتلون الحياة هنا، ويحاصرونها حتى تتمنى الموت، لقد نزح الكثير من سكان عدن والضالع إلى إب، وهرب الكثير عبر البحر، ومن تبقى

سيُحاصر حتى الموت، سأرحل وحين تعود مدينتي سأعود، أرجوك أن تحاول اللحاق بـــي يا وحيد، حاول أن تخـــرج بعائلتك كلها، إنهم تتار هذا العصر، ولن يتركـــوا مكانـــاً آمناً).

لقد أصبح قلبـــي هكذا فجأة، عجوزاً طاعناً في الألم.. يائســـاً من كل شيء.

يعشق التأمل والصمت بعد عمر قصير من الجنون والنزق، لقـــد عركته الصدمات، وقذفته في أغوار سحيقة من الشعور..

يشعر بالامتنان لمن صنعوا الجمال في حياته ثم رحلوا..

ويشعر بالقرف الكبير نحو من أفسدوا الحياة بوجودهم دائمـــاً خارج أسواره، وخارج أسوار الإنسانية.

لعله هكذا أفضل.. حزين وصامت، قلب رزين، فلطالما التصق به وصف الجنون.

قلب أرهقه الأمل كثيراً، صعوداً وهبوطاً، بُعداً وقرباً، لقد أعيته الحياة ببساطة المستحيلات وتعقيد الممكنات.

لكنني كنت أحاول أن أقاوم بطريقتي الوحيدة التي أجيدها..

يجب أن تصل أصواتنا المخنوقة إلى العالم الخـــارجي، يجـــب أن يعلموا بوجود الكائن اليمني المعذب بما اقترف جلادوه بحقه طـــوال سنوات من الجهل والتجهيل والتعتيم.

يجب أن يعرف العالم أي شعب عظيم نحن، حين نصبر كالحمير دائماً.

* * *

وصار العناد صديقاً أثيراً يبقيني على قيد الكبرياء..

عفراء.. ما زالت تسألني في رسائلها كيف حالك؟

فبماذا أجيبها كي تعلم أن حالي يشبه حال وطني كثيراً..

أنا مُغتصَب وقتيل ومشرد..

أنا من يجب أن يكتب عن الحرب أكثر من الحب، ويصف الجوع أكثر من الشبع، ويبكي حمرة الدم بدلاً من التغني بحمرة الورد، أنا من يدفن الرفاق أو يودعهم للشتات، ليبقى محاصراً بالموت، كشاهد قبر من ألم لمقبرة الوطن، أنا من عليه أن يعيش مع الموت، وينسى الحياة..

ماذا أخبرها عني أنا.. عاشق حرمته الحرب رائحة الحب؟

هل أخبرها أني أجد العزاء في اختلاس خيالها كلما عانقتُ زوجتي أو قبلتها، وأني أهديت زوجتي عطرها المفضل، الذي تضعه خفية من أنوف الرجال، كي أتنفسه أنا، وحتى أُكفّر عن خياناتي القلبية، أسرف في تدليل زوجتي، ومنحها الهدايا التي تحبها مثلي أنا.

هل أخبر عفراء أنها أصبحت أكبر أوهامي الجميلة وأحلاها..

هل أخبرها أني أشتاق إلى سماع صوتها، وأعجز عن الاتصال بها، وهي لن تفعل أبداً، لقد كانت تقول إنها لن تلاحق رجلاً متزوجاً، لتسرقه من زوجته وأطفاله.

هل أخبرها أني لطول ما تمنيت صوتها أتاني في حلم، رنَّ هاتفي، وأنا أسير في شارع يحجبه الضباب، كان صوتها دافئاً بلكنة أهالي

عدن الدافئة، فبدد كل البرد في طريقه، وهي تقول ضاحكة:

- أعتذر منك، لقد نسيتك في غمرة انشغالي، كيف حالك؟

همست ضاحكاً بألم مكبوت:

- بخير، والخير أنك تذكرتني. كيف تأتّى لك ذلك؟

همست:

- اشتقت إليك.. متى تأتي كما قلت؟

قلت للحلم في المنام:

- أتمنى أنك تشتاقين إليّ فعلاً، أترين هذه النجمات التي تظهر لك في السماء، هي زفرات اشتياقي لك، تضيء السماء وتنطفئ روحي، لقد صار فقدي لك مجرة تتسع كل يوم.

عزيزتي، قد أسافر في غضون أسبوع. قلت ذلك رغم يقيني أني لن أبرح مكاني هذا أبداً.

هتفتُ مودعاً وصوتها يبهت:

- عفراء، أرجوك. أُقبّل باطن قدميك الحبيبتين، اشتاقيني حقيقة ولو مرة.

عندما استيقظت كنت نشيطاً، كأنما تلقيت جرعة منشطات محرَّمة واقعياً..

يكفيني في هذا البعد وتلك الحرب أن أحظى بحلم يكون فيه صوتها هي.

لم أعد أدري أيهما أفضل: وجود الزوجة والأطفال إلى جوارك، أم وجود الحبيبة البعيدة التي تجعلك تحلق أحياناً فوق السحاب، وأحياناً تجعلك تنوء تحت ثقل الجبال.

كلاهما كان جميلاً، والأجمل أن تكون الزوجة هي الحبيبة معاً..

لقد كان لي صديق ملائكي يعمل في إحدى القنوات التلفزيونية، كان يعشق زوجته أمَّ أطفاله عشقاً نادراً، يظل سحابة يومه يغازلها عبر الهاتف، فيزداد شوقه لها.

نعم.. قبل هذا الحال الخراب كان من الجميل أن يكون لك زوجة وأطفال وحبيبة ترغب بالزواج بها، أما الآن وكل شيء إلى الهاوية، فأنت تتمنى لو أنك غير متزوج، أو أنك لم تنجب أطفالاً، كي لا تخشى عليهم كوارث الأيام القادمة، و لم تعد ترغب بحبيبة تنسى وجودك هي الأخرى لانشغالها، في حين أنك في عمق حرب مستعرة لا تنساها، بل تجدها تلك الصومعة من السلام، تلجأ إليها عند هيجان الحرب الكافرة بالحب.

لقد كان صديقي "عمار" محقاً يوم قال: إن الحياة بلا ارتباط عاطفي، أكثر راحة وامتلاكاً للنفس.

قال لي هازئاً من تعلقي بعفراء:

- أتعرف سرَّ حبك هذا لها؟ لأنها كالنسيم، لا تثقل على قلبك سوى بدلال تمنّعها منك، فأنت تسعى إليها بلهفة الشوق، وهي عنك زاهدة، إنك لو عرفت حبيبة كالتي أوقعني حظي العاثر بها، لعلمت أن العزوف عن النساء راحة للبال من كل شاغل، إنها تطوقني باهتمامها ولهفتها وأشواقها كالأشواك في طريقي، حبُّها أصبح بحراً هادراً سيغرقني لا محالة، إن لم أقسُ عليها بهجري وتجاهلي.

النساء لا يفهمنَ متى يملُّ الرجل من الحبّ، ومتى يشتهيه، كلما أشفقت عليها من صراحتي أني مللتها ظنّته حباً لها وتمسكاً بها، كلما

ابتعدت عنها زاد تمسكها بـــي، قل لي بربك هل هذا حب أم اعتقال صريح؟

مسكينة "سماح" هي المهووسة بإثبات الحقوق عجزت أن تثبت لها حقاً في قلب الرجل الذي تحب، كنت أظن صـــديقي "عمـــار" يتفاخر بامرأة كهذه تعشقه حتى التماهي، وما كنت أظـــن أنَّ حبـــاً كهذا قد يكون موجوداً، فامرأة تحب هكذا كيف يقابلـــها بشـــفقة فقط؟ كيف لم يجد في حبها ما يستحق أن يحب؟

أحياناً نكمل حيواتنا القصيرة برائحة الحب فقط، فـــإذا ذقنـــاه أسكرتنا نشوته، وصرنا على درب مجنون ليلى، وما أكثر المجانين بلا ليلى.

عمار عاشق الكاميرا، ربما لا تؤثر فيه النساء، كما يؤثر فيه منظر طبيعي يجعله يخاطر كي يلتقط مشهداً مميزاً له، إنه فنان في كل شيء، إلا في تعامله مع أنثى عاشقة، لطالما أخبرته أن الحب مشـــهد جميـــل أيضاً، يجب أن يلتقطه القلب في لمحة، إلا أنه أصر أن يعشـــق حريتـــه أكثر، والحب نوع من العبودية المقنعة.

اختار عمار أن يحمل كاميرته ويلتحـــق بالمقاومـــة في مـــأرب والجوف، كي يوثق للحرب بدلاً من الحب، قال لي قبل سفره:

- لن نستطيع أن نحب ونحن عبيد، الحب للأحـــرار فقـــط، تركت ميادين الحب والهوى، وسألتحق بميـــادين القتـــال والحرية.

حين ودعته كنت على ثقة أنه لن يحتمل أجواء الحرب ومنـــاظر القتل، فقد كان روح فنان تعشق الجمال والطبيعة، كنت على ثقـــة أنني لن أخسر رفيقاً بغيابه بعد شائف، وأنه سيعود إلى صنعاء قريباً.

ربما يكتشف أن الحب حرية أيضاً.

إنما هذه الحرب لم تعد تأذن لنا بالحب حقاً..

ففي صباحات القلق والبحث عن لقمة العيش التي صارت هاجسا مرهقاً، أو ملاحقة أخبار القتال، وحصر القتلى من الطرفين، كيف يتأتى لك أن تفكر في الحب؟ في اشتعال فتيل الكراهية والعداء بين الناس، وتشظّي بيئتك من حولك.

في مساءات القصف المروع، كيف لك أن تفكر في رغبات الحب.

كيف يمكنك أن تمارس الحب على أزيز الطائرات؟

حتى لو التصقت بك كل نساء الأرض الفاتنات في قلق ورهبة..

فحتى أعضاؤك تتلقى إشارة الخوف من هذا الكائن، الذي يمخر السماء فوق سقفك المرتعد، إنها تبحث عن أهدافها المرسومة بدقة مجازية، وأنت لا تعرف تماماً هل حظك العاثر جعلك تسكن قرب أحد هذه المواقع؟

وهل هذا الصاروخ المدمر ذكي بما فيه الكفاية، كي لا يخطئ في حق حياتك، ويهديك للموت ملفوفاً في أنقاض منزلك؟

لقد أصبح التحشُّم في لباس النوم واجباً، فأنت لا تدري متى يستدعيك عزرائيل لمقابلته الأخيرة، إنه الترقب والغضب..

فكيف سنمارس الحب.. أيّ نوع من الحب في زمن الحرب؟

* * *

لأيام طويلة عزلتُ نفسي في ذلك المنزل، ربما عاجزاً عن استيعاب ما يحدث، السماء تمطر صنعاء بالصواريخ، والناس يتركون منازلهم القريبة من المعسكرات في هلع، لم تكن صنعاء مدينة تحوي معسكرات، بل كانت معسكراً يحوي مدينة، ومخزناً هائلاً لأسلحة الخراب يوشك أن ينفجر بها.

وهناك على مشارف تعز وعدن تحتدم المعارك بلا هوادة، وإلى مأرب يتجه الكثير من الرجال للتدريب في معسكرات للقتال.

كان هناك ذهول من الناس في الشوارع نخشى مجابهته، هكذا فجأة أصبحت بلادهم منطقة مشتعلة، كتلك البلاد التي كانوا يشاهدونها في الأخبار، فيتألمون لأجلها.

رجل الشارع البسيط، رغم أنه لم يعد بسيطاً، فقد ثقّفته الأحداث سريعاً، إلا أن عنده فطرة الثقة بكل ما يقال له، لهذا هو يتجرع ثمن جهالته المعتادة حول ثقته بالخطابات الرنَّانة.

وما زال هناك الكثير ممن يلتفون بشغف الدواب للبرسيم حول كل من خطب فيهم بشعارات تدغدغ عجزهم لفهم ما يدور، كل من أهداهم خلاصة فكر قابل للاعتناق حتى وإن كان منحرفاً، سيسارع إليه المتثاقفون الذين يترصّدون الغنائم، ليطبّلوا له ويروجوا له بين أوساط العامة، عشاق الوجبات العقلية الجاهزة.

استيقظ حس الوطنية المخدر، وأصبح العدو خارجياً فقط، وأصبح شعار "نقتل من عدو الداخل أفضل من عدو الخارج" هو

شعار المرحلة، نوع آخر من جهالة العصبية فقط.

لقد كان اليمني عدو نفسه من أيام "اللهم باعد بين أسفارنا"، وأي عدوان خارجي هو لتحجيم وباء العقلية اليمنية فقط.

لقد انقسم الرفاق إلى فريقين، يحارب أحدهما الآخر بلا هوادة، لقد كانت تجمعهم كراهية المليشيا التي أفسدت الحاضر، وخنقت المستقبل، لكن دخول قوات التحالف صنفتهم إلى خونة ومرتزقة، حتى أولئك الذين كرهوا من أعماقهم المليشيا، وجدوا أنفسهم يرتمون تحت سياطها أَنَفَة من تدخل خارجي، يدمر البلد المدمَّر أصلاً.

لقد كانت المصالح تصنع الكثير في النفوس، وكذلك سلطة النظام السابق وأعوانه الأكثر نشاطاً من نار في هشيم، وهل هناك أوفر من هشيم أفكارنا؟

كم هو صعب أن تختلف مع أشخاص جمعكم الكثير من تقارب الفكر والرأي لتأتي الحرب فتقتل علاقاتكم، لقد خسرتُ رفاقاً كثراً بسبب موقفي، وما أكثر الخسارات في وطني.

لكنّ التشظّي كان أكثر عمقاً في هذا الوطن، وتأثير الحرب سيستمر أجيالاً لن ينسى، فكل من أرسل أبناءه من شمال اليمن، كي يقتل أبناء الآخرين في جنوبه، لن تغفر له كل تلك القلوب المكلومة، وإن أعادوا إليه ابنه مسجّى في كفن.

قد كانت كتائب الموت تتدافع بشعارات الجهاد والجهاد المضاد، لكن شتان بين من يعتدي عليك في أرضك وفي عقر دارك، وبين من يعتدي عليك وأنت تدافع عن مالك ونفسك وعرضك وحقك في الحرية، التي هي الحياة لكل البشرية.

المليشيا تُجيّش أطفال القرى، وترسلهم إلى الموت بدلاً من المدارس، تقودهم بحماسة الأطفال للعب بألعاب الموت، وحاجة أهاليهم لما تدفعه من مبالغ تافهة، وفي النهاية لقب والد ووالدة الشهيد، ووعد حصري بدخول الجنة مع سبعين أحمق ممن يصدقهم.

حتى أولئك المتفائلون بغد أفضل سيستيقظون على شرخ هائل قد ابتلع الكثير من الوئام بين اليمنيين، لقد أصبح النصف تقريبا يقتل النصف الآخر، وهذا الآخر سيسعى للانتقام يوماً.

هذا التفاؤل يذكرني بشخص أصابه الوضع بما يشبه الخَبَل، فطفق يبشر بحماسة مثيرة للعجب لحزب جديد يدعو إلى المساواة والعدل، كان الرجل قبل الأحداث يحيا في رغد من شركة توكيلات متعددة، واستطاع في زمن قياسي أن يثرى ويبني بيتاً جميلاً، ويؤمن مستقبل أطفاله، وفجأة انهار كل شيء مع اكتساح المليشيا لمدينته تعز، أصيب منزله بالدمار بفعل القصف العشوائي من قبل المليشيا، وعمله بالكساد والخراب، ثم انتهى تماماً بالحصار، قُتل أكثر أصدقائه، وتشرد مع عائلته من مدينة لأخرى..

التقيته في أحد المجالس عند بعض الأصدقاء، فقلت له:

- ومع ذلك تركتَ تعز بكل ما فيها وجئتَ إلى صنعاء؟

قال بحماسة ورذاذ القات يتطاير من فمه:

- صنعاء ليست لهؤلاء الوحوش، صنعاء لكل اليمنيين، هؤلاء الجراد سيأخذون موسمهم وينقرضون، ومن هنا سنغير تفكير الآخرين، وندعو لحزب جديد يصلح البلاد، ويقضي على الظلم بلا سلاح.

فقط من وصل حد الثّمالة من قرف هذا الوضع، يدرك أن

الحديث والتنظير لفكر أو حزب سياسي جديد أو "بلسن" جديد وطري يعني التسلية، وملء فراغ الوقت.

أتفهم حين يأتي كلام كهذا من خارج أتون اليمن المشتعل، وأقدر أن صاحبه يعيش على مقربة من الحياة، وكل شيء على ما يرام، لكن أن يصدر من شخص يقابل الموت كل يوم بوجوه كثيرة تبتز حياته قطرة قطرة، فهذا ما أستغربه فعلاً.

ما زال الرجل يحلم بالتغيير عبر الدعوة السرية، في حضرة قريش كلها.

***

لاح شبح النزوح الذي لا يهادن الراحة، بل ينقضُّ عليها فيبعثرها أشتاتاً.

النزوح كابوس جديد يحل بساحة اليمنيين، لم يختبروا مآسيه من قبل، حقاً هو نزوح داخلي من مدينة إلى أخرى، بحثا عن الأمان، لكنه حدث جديد ومجهول صادم أرعب كثيرين، وأذاقهم معنى التشرد بعيداً عن منازلهم ومدنهم، عن أهاليهم وجيرانهم، لا يعلمون هل يكون بعده لقاء، أم أنه فراق إلى أسوأ.

المدارس التي أُغلقت في وجوه التلاميذ احتضنت عشرات العائلات في تزاحم وشحة للمواد الغذائية ومستلزمات الحياة.

القادرون فقط من تمكنوا من سكن شقق مستأجرة، أو السكن لدى أقربائهم.

مدينة تعز وعدن نُكبتا بقتال ومواجهات يومية، وقصف عنيف من المليشيا، تشردت فيه عشرات العائلات في نزوح قسري لمدينتي إب، والتي اكتظت بالنازحين.

عائلات كثيرة نزحت لا تحمل سوى أكياس ثيابها في رعب غير مسبوق، تفرُّ للضيق من المجهول، تترك خلفها المنازل عرضة للصوص الفوضى، كي لا يسرق القصف أرواحهم.

راجت تجارة مقتنياتهم بعد أن نهبتها المليشيات، وحولتها إلى سلع تباع كحق مشروع لهم، أخبرتني صديقة من عدن أن أقرباءها اضطروا لشراء بعض مقتنياتهم وأثاثهم من أفراد المليشيا، بعد أن نهبوها

وعرضوها للبيع في أسواق سوداء، تبيع كل شيء بلا حياء.

مدينة إب صاحبة النصيب الأكبر من النازحين، تظل المدينة الأكثر أمانا بتسليم أهلها واستكانتهم، يطحنها الغلاء في المعيشة، واختفاء السلع والضرورات، وتبقى صامدة في وجه الحرب، هروباً من عواقب أشد وأنكى.

أصرَّت زوجتي وهي ترى كل معارفنا يتركون صنعاء إلى الضواحي أو مدينة إب، على النزوح بالأطفال هروباً من فجائع الغارات الجوية، فحالة الرعب التي كانت تصيبهم لا توصف، إنهم قلوب صغيرة لا تحتمل هذه الانفجارات المروعة، ولا تفهم أسرار الأخطاء الصديقة من قبل التحالف.

كان سفرهم دوني محنة أخرى، وخسارة تضاف إلى رصيد خسائري المتوالية، لم يكن بالإمكان السفر معهم، فالطريق قد لا يكون آمناً لصحفي ملاحق، ويجب أن أبقى للبحث عن الرزق في أعمال هنا وهناك.

سفرهم إلى مدينة إب لدى والدتي كان أنسب الحلول، قبل أن يداهم الطيران تلك المدينة الريفية في فجائع لم يسبق لها مثيل، جعلتني أقف مذهولا أين يمكن أن أذهب بعائلتي، لولا تطمين أمي المتكرر لي أنهم في مأمن، بعيداً عن الأماكن الواقعة كأهداف بعد انتقالهم إلى مكان آمن.

كانت رسائل زوجتي اليومية عبر الإيميل تجعلني أعيش الألم لحظة بلحظة، فلم يغادروني هم، بل غادرتني روحي معهم.

***

(عزيزي وحيد..

تلك الليلة أشعلت ثلاث شمعات في إسراف لا مبرر له، فقد كنت أشعر أن جوفي مظلم غارق في الكآبة والخوف، ولا شموع ستبدد هذا الشعور..

لقد اشتعل القصف فجأة هنا أيضاً في إب..

ظننت أنني في غاية الاستعداد لسقوط صاروخ في مكان قريب تصل شظاياه إلى نوافذي، لكنني كنت أكذب على نفسي، فلا استعداد لديَّ لأي قصف من جديد..

الحروب لا تقتل الإنسان فقط، إنها تقتل كل شيء في طريقها، تقتل حتى الهواء الذي يتنفسه الأحياء، فيدخل أجسادهم ميتا، ويتعفن في صدورهم، وتصبح قلوبهم مقابر متنقلة للخوف.

كنت وحدي ذلك المساء، فوالدتك عند أختك سعاد..

أجساد الصغار قد تكومت في الفراش تلتمس الأمان من بعضها، متشبثين بي كي لا أتركهم، لقد ناموا في انتظار انفجار، وانتظار الرعب أشد رعباً دائماً.

حين سقط الصاروخ الأول في الاستاد الرياضي لمدينتنا سقط حاجز الأمان دفعة واحدة.

ذلك اليوم عصرا في حي "صلبة السيدة" قرب الملعب سقط منزل فوق قاطنيه، كان عامراً بهم.

قال لي شاب صغير من أبناء الجيران إنه وصل فوق ركام الأنقاض بعد أول ضربة صاروخية، وهناك سمع نحيب النساء المتوجع والمصدوم، قال إنه لن ينسى تلك الشابة التي مدت يدها إليه منتحبة، وهي تقول بصوت مخنوق: أخرجونا...

قال لها بحماسة يائسة: اصبرن سنخرجكن..

لكنّ السقف الإسمنتي كان أثقل من سواعد عشرات الرجال والشباب، الذين التفوا حول الركام للمساعدة أو السرقة. وكانت طلقات رشاش المراهق المليشياوي فوق رؤوسهم كفيلة بجعلهم يتركون السقف، لينهار أكثر فوق أجسادهن..

قال الشاب الصغير إن أحد الذين حاولوا رفع السقف الإسمنتي انفعل بقوة وهجم على المراهق، وكال له عدداً من الصفعات والركلات، وهو يصرخ بتشنج شديد:

- أنتم السبب يا كلاب.. أنتم السبب في قتلهن، وقتل البلاد كلها.

وفي المساء وعلى ضوء الشموع الثلاث، كنت أحدّق إلى السقف رعباً..

لقد كرهته.. وكرهت كل السقوف والجدران التي تحمينا، وفجأة تطبق على أرواحنا حتى تنتزعها.

في آخر ساعات ذلك النهار، كان حي "صلبة السيدة" حيث سقط صاروخان شبه خالٍ، وكذلك الأحياء المجاورة.. إنه نزوح الصدمة والرعب، شيء لم تتخيله مدينتي.

وكان لا بد من النزوح مرة أخرى، في المناطق المتوقعة.

السكن بجوار المجمع الحكومي المكتظ بالمليشيا كان حظاً سيئاً،

واعتبر المجمع منطقة مستهدفة.

أتى ابن الجيران يعرض المساعدة، لأخذنا إلى حيث نشاء بسيارته..

فقلنا له: ربما في الصباح..

في إب وغيرها الكثير من مدن اليمن تتكالب على الناس جهات الموت بشكل يدعو للرعب، فإن لم تمت بسلاح المليشيا، متّ بقصف المليشيا نفسها.

وإذا نجوت متّ تحت قصف قوات التحالف بنيران صديقة، فهذا التحالف جاء من أجل مساعدتنا لصد هذه المليشيا، ومساعدة عزرائيل أيضاً بقتلنا عن طريق عدم الاهتمام بمن يجاور هدفاً يجب قصفه.

لقد قُتل بقصف التحالف، وشُرّدت أعداد تضاهي من قُتل وشُرّد بفعل جماعة الحوثي وحليفه المخلوع، هل ترى من هو الضحية دائماً؟.. إنه الشعب البريء..

لقد نسيت أن أذكر جهة أخرى للموت: إنه الجوع الذي يكتسح "إب"..

ربما لم تسجل حالات وفاة بسبب الجوع، لكنَّ مئاتٍ وألوفاً قُتلت نفسياتهم جوعاً في عجز عن توفير لقمة العيش لعائلاتهم، لقد كان الجوع يفترس اليمنيين خوفاً من الجوع والحاجة، كل شيء انعدم واختفى فجأة، وارتفع سعر الموجود إلى درجة لا يتخيلها الفقير.

البطالة واختفاء فرص العمل وتسريح العمال من أشغالهم، أصابت اليمنيين بالجنون فقراً.

لا توجد أعمال تدرُّ المال، كي يأكل الأطفال.

الوقود.. الكهرباء.. الغاز..

كان ثلاثي شلل الحياة المتبقية لدينا في اليمن كلها.

لأيام وأقول أيام، ولا أدري هل ستصبح شهوراً أم سنوات، كنّا ننتظر الكهرباء..

أصبحنا في ظلمة داخل ظلمة.

الوقود عصب الحياة اختفى، فاختفت معه تفاصيل الحياة، التي لم نكن ننتبه لها..

لا بضائع.. لا ماء.. لا مواصلات.. لا اتصالات ممكنة للجميع.

كل شيء اختفى، وأصبحنا معزولين عن كل شيء يمكنه أن يخبرنا هل سنكون بخير.

في الصباح ومن نافذتي المطلة على الحي شاهدت جماعة من المسلحين قد "حشطوا" ملابسهم حتى بانت مؤخراتهم، يمرون في نفير غبي، سيتصدون للطائرات بعصي الخشب الرشاش على أكتافهم..

زامل يصدح من مكان ما عن الحرب التي ستحول الخضرة إلى رماد، ذكرني أنني كنت أحب أن أشرب بُنَّ الصباح على صوت فيروز، وهي تصدح من قناة السعيدة.

تمرُّ نساء وأطفال محملين بملابسهم في أوعية صابون كريستال، يفرون إلى المجهول..

ومجنون حافي القدمين يسير بتعقل واضح صوب مكان الانفجار في الصالة الرياضية..

ربما يبحث عما خلفه المجانين ليستفيد منه..

وأشخاص يمرُّون ذهاباً وإياباً مسرعين في لهفة، وأثناء مرورهم يلعنون آل سعود بطريقة بذيئة جداً.

وفي طريقهم لا ينسون لعن حزب "الإصـــلاح" كشـــماعة في متناول الأفواه..

"الإصلاحيون" في إب دائماً في وجه المدفع، حتى وإن حاولوا أن يكونوا خلفه، أو من يوجهون أهدافه.

رجالهم إما مختطفون ومعتقلون وإما مشردون وهاربون من ذل الاعتقال وإهانته.

حين يأتي الصباح.. تشعر أنك على ما يرام.

لذا كنت أتمنى ألا نترك المنزل، رغم شعوري أننا العائلة الباقية الوحيدة في الحارة، كانت مخاوف الناس من أن يُضرب مبنى المجمع الحكومي الذي يتوسط المنطقة، والذي لا يفصلنا عنـــه إلا أمتـــار قليلة، قد انتقلت إليّ بقوة.. من أجل الصـــغار يجـــب أن نتـــرك البيت..

لقد كانت أسوأ ليلة مرت عليهم على الإطلاق، يبحثون عـــن النوم كي لا يخافوا..

وكلما غرقوا في نوم أرق، هبُّوا واقفين لصوت انفجار آخر..

كان لا بد من النزوح من أجلهم للمرة الثانية..

مقولة "أنني أفضّل الموت تحت سقف بيتي" ليســـت استعراضـــاً بطولياً فارغاً، أو مجازفة بالأرواح.

النزوح موت بطيء، يصبح معه الموت السريع خيارنا الأفضل..

هل كل من ترك بيته سيتركه للأمان والراحـــة؟ أم للمجهـــول والتشرد والضياع، وربما الموت على قارعة طريق.

لقد سقطت منازل كثيرة فوق رؤوس قاطنيها في تعز وعـــدن وصنعاء وصعدة وإب والحديدة وغيرها..

ربما لأنهم عجزوا عن النزوح خوفاً من فكرة النزوح ذاتها، أو لعجزهم المادي عن ذلك بعد ارتفاع أسعار الوقود والمواصلات ارتفاعاً مهولاً، ومن ثم ندرتها بشكل يعجزك عن التحرك..

حين قررنا أنا ووالدتك ترك المنزل، كان أول سؤال أقلقني هو إلى أين؟

فلم يكن لكل مواطن يمني بيت في الريف كي يرممه كما قال مسعر حرب، ليفرَّ إليه في وضع لم يخطر على البال، ولأنه يجب المغادرة فسؤالي "إلى أين" يعدُّ ترفاً غبياً.

كان السؤال الملح، هو ماذا أحمل معي من أشياء قد تحتاجها أسرة ستحتاج لكل شيء؟

كان خوف المداهمات، وسرقة البيوت، ونبش خصوصياتها، أكثر ما يثير الرعب، وبدا لي كل شيء خاصاً جداً وصعباً التفريط به، فكيف تحمل حياتك كلها خلف ظهرك في مجهول نزوح إجباري.

وأخيرا تركنا كل شيء خلفنا، لننجو بأطفالنا فقط.

في بعض العائلات التي نزحت كانت الأسر تتراكم في منزل ريفي لا يتسع لجدرانه ذاتها، لكنَّ القلوب التي ذاقت الخوف، انفتحت على مصراعيها لكل قادم يزاحم الأمتار القليلة.

شحّة الماء في الريف، وصعوبة العيش، وعشرات الأفواه الجائعة، والظلام الحالك الدائم جعلت الجميع يتمنَّى النزوح للآخرة.. لقد انتقل اليمني مئات السنين إلى الوراء دفعة واحدة.

أصبح القمح عملة صعبة، ومن اكتنزه في بداية الأزمة، صار يقايض به حفنة من طحين في غياب وقود طواحين الحبوب، وبدأت فكرة استخدام الرَّحى تعود، فالشعب كله تطحنه رحى الأزمة.

وللأزمات حلاوتها..

وفي منزل خالتك كنا نساء أربع عائلات، يصل عددنا إلى تسع نساء، يجمعنا مساء ضوء شمعة تتمايل لاندفاع الأنفاس الضاحكة، ونحن نحلل الوضع كل مساء، ونصفُ هول الضربات الصاروخية التي لم نعهدها في حياتنا قط. ونشرب الشاي كثير السكر الذي لم أحب حلاوته الشديدة.

ربما عرفت الهناء وأنت في خيمة في صحراء مقفرة، وحولك قلوب بيضاء محبة، وأنت مطمئن على أحبائك، كما لو كنت في قصر مشيد، وحوله الحدائق الغنّاء.

أجمل ما في الإنسان اليمني هو التكيّف مع أي وضع فُرض عليه..

كان الخوف مما سيأتي هو المسيطر على تفكيرنا، إلى أين تسير البلاد ومتى تنتهي الحرب؟ هل سيتحمل هذا الإنسان تسارع الأحداث المفاجئ، وبطء الحلول الصادقة.

النزوح أن تترك خلفك أنت.. بكل تفاصيل حياتك واهتماماتك واستقلاليتك.. أن تلغي ذاتك من أجل سلامة الآخرين، لن تشبع إلا إذا شبعوا، ولن تنام إلا إذا ناموا، ولن تعيش إذا لم يعيشوا.

قلبك موزع في كل اتجاه، تعددت أسباب القلق، وجبهات الخوف، والسبب واحد.. فقدان الأمان.

قصص النزوح تختلف من شخص لآخر، يجمعها الاغتراب داخل وطنك، وحاجتك الشديدة لإطعام الأفواه الجائعة، وتوفير احتياجاتك الأساسية.

وفي النهاية تفقد مذاق الحياة في غربة ذات، وغربة مكان..

انتهى الماء في منزل الخالة، وأصبح البقاء شاقّا على الجميع.

خمسة أيام ومدينة إب تنتظر قصفاً آخر، فكل سكانها تقريباً نزحوا إلى القرى خوفاً من استمرار الضربات الصاروخية، في اليوم السادس عدنا إلى بيتنا، كما عادت عشرات الأسر إلى منازلها..

في طريق العودة قام أحد الأشخاص بقيادة السيارة، وكان يبدو أنه عجز عن التعامل معها، فكان يتلقى دروس القيادة من ابننا الصغير، الذي اجتهد في إبراز حذاقته المبكرة في التعامل مع السيارات.

كان الموقف يدعو للضحك، لكنّ قلبي كان دامياً لرؤية مدينتي بهذه الحال.

في أول منعطف نزولاً من بعد أن تظهر إب، تلتقيها عيناي بعد أيام من الغياب تعلوها صفرة حزينة، هل كانت صفرة الفجيعة، أم صفرة الاحتضار في انتظار جرعة صواريخ أخرى؟

مدينة إب..

لسلميتها المفرطة فتحت أبوابها للمليشيا، فكانت كالسرطان انتشاراً، تمكنت من تحويل إب إلى ممر للموت إلى محافظات عدن والضالع وتعز.

كل هذا وإب تتلقى مئات الأسر النازحة من مختلف المحافظات، لكونها المدينة الأقرب والأكثر أماناً، والأنسب من كل الوجوه.

لهذا زاد حرص أبنائها على سلميتهم المذلة، كي لا ينفجر الوضع ويزداد سوءاً.

ربما لا يعرف المتحمسون لتطهير مدننا من وباء المليشيا، كم يعاني أبناء مدينة إب بسبب سلميتهم ومقاومتهم الخجولة..

ما زالت أطلال منزل "الحماطي" وغيره ماثلة في عقول أهالي إب، والتي نُسفت بتهمة المقاومة، ونصب الكمائن للإمدادات العسكرية للمليشيا، ماثلة مع كل تهديد بنسف منازل إصلاحيين، رفضوا تسليم أنفسهم للاعتقال.

إنما أولئك الذين لا يملكون بيوتاً كي يفجروها، كانت أحلامهم هي البيوت التي نسفوها، وصار مستقبلهم بلا مأوى.

لقد كان لهذه المدينة الوادعة نصيب الأسد من الانتهاكات والمداهمات والخطف والتشريد والنهب باسم المجهود الحربي، أبناؤها يعانون اختفاء السلع والوقود والكهرباء منذ أكثر من شهر.

وبقيت إب تحتضن النازحين، وتلملم جراحاتها من أجل سلامة الناس من أيّ تأزم قد يحدث كلما أصرت المليشيا على استفزاز أبناء المحافظة، وحرمانهم من كل مقومات الحياة، مع حدوث اشتباكات يومية بين قبائل ولصوص المعسكرات المنهوبة.

استمرار المليشيات في تخزين الأسلحة ومضادات الطيران داخل المباني السكنية وتعريض الأبرياء للقصف.

وحتى كتابة هذه الرسالة، وبعد ليلة مرعبة تم فيها قصف أماكن في المدينة، وتجدد الاشتباكات، واستمرار تعالي أصوات الرصاص بين وقت وآخر، تظل مدينتنا نازحة بحثاً عن السلام، تحتضن مئات النازحين في قلبها في قصص نزوح مؤلمة، ستسطرها الأيام للأجيال القادمة..

عزيزي وحيد.. كن بخير حتى نكون كذلك).

* * *

رسائل زوجتي غارقة في الحزن والصدمة، وهي تصف مدينتها الهادئة حد الموت.

وكأنَّ إب لبراءة هوائها من الملوثات، لا يُصدّق أن تصيبها بشاعة الحرب بأي عارض.

تمنَّينا في أعماقنا أن تكون من نصيب السلام، وقد سقطت مدن غيرها في الرهان.

تعز خيبت ظنون الكثيرين، كانوا يرونها هدفاً سهلاً للمليشيا، فأسقطت رهانات الجميع، رغم حجم المعاناة المخيفة، وضحاياها من الأبرياء والأطفال.

في تعز أصيب الكثير من الأطفال بصدمات نفسية، وهم يرون قذائف المليشيا تسقط على منازلهم، وتختطف أرواح رفاقهم، ومن نجا بالنزوح، كان بحاجة للعلاج من فشل الكلى أو الصدمة العصبية، وبحاجة لإعادة تأهيل للحياة.

كانت الحرب بكل بشاعتها هناك في نحور أطفال تعز وعدن والضالع.

الأبناء حرموا من إنهاء عامهم الدراسي، نتيجة للحرب والخوف، وصرنا نخشى عليهم الموت والقتل في مدارسهم، والطرقات، وحتى في البيوت، صار مستقبلهم غامضاً وقاسياً، يقابله عجزنا عن شرح لماذا يقتل اليمني أخاه اليمني، وتحت أي ذريعة؟

الطفولة بلغت أقصى درجات الانتهاك في عهد المليشيا، يُساق

الأطفال للموت بين قاتل ومقتول، وكلاهما جزء من مستقبل الوطن المغدور به.

مرَّت أيام عصيبة عليَّ، وأنا أفكر في طريقة تكفل الأمان لأطفالي، كنت أخشى هنا في صنعاء أن تنتزع المليشيا أحدهم كمجهود حربي، فقد كان يبدو أن على كل أسرة في هذا الوطن تقديم قاتل أو قتيل منها، وأحياناً يمعن الجهل في نكايته بنا، ليكون منها شهيدان، ينتمي كل منهما لطرف ضد آخر.

صدمة وهيب ابن الثامنة عشرة لا تفارق تفكيري، وهو يحكي لي كيف أن ابن خالته ورفيق صباه قُتل غدراً في عدن، بعد أن ذهب بقدميه ليقاتل هناك في صفوف المليشيا.

يومها قلت له:

- لماذا ذهب صديقك إلى عدن؟ هل ليقوم برحلة إلى بحرها الساحر؟

قال بضيق:

- لقد غرروا به مع شباب كثيرين من أبناء بني مطر وبني حشيش، لقد كان يبدو مغسول الدماغ، لا يفقه من تحذيري شيئاً، كان يظن أنه سيعود، لم يكن يتوقع هذه الميتة، و لم أتخيلها له، لقد قتله الأوغاد، وما زال صغيراً على الموت.

قلت له رغم يقيني أن سنه الصغيرة وألمه على رفيقه سيعجزانه عن الفهم:

- الوغد من يعتدي أولاً.

صديقه قُتل بقنبلة أُلقيت عليه مع آخرين داخل شقة كانوا قد احتلوها كوكر لهم، اقتحمتها مقاومة عدن، وفجرتها بمن فيها.

إن صور القتلى من أطفال المليشيا المجندين تنتزع مني الـــدموع، بنفس القدر الذي تفعله صور الضحايا الأبريـــاء، لا تـــزال ملامـــح الطفولة البريئة المعذبة تلوح على محيَّاهم، يحتمون بالمتارس بدلا مـــن التعليم في المدارس، ويلتحقون بركب الموت مبكرين.

* * *

وللحزن في القلب فعل عجيب يفيض..

يفيض فيلجم حتى البكاء..

غيرت مكان إقامتي لشقة صغيرة، تملكها سيدة طيبة القلب، تُدعى أم ناجي.

كالعادة بمساعدة أحمد النويرة منقذي الدائم، لطالما تساءلت ماذا كنت لأفعل بدون هذا الصديق.

لقد كان سكنُنا متواضعاً يتوارثه الشباب العازبون، لذا يخلو من ملامح الألفة والجمال الذي تصنعه النساء، لكنه مكان آمن بين الأحياء المكتظة بالناس، لدى أشخاص عُرفوا بالطيبة والأخلاق.

الحصول على مكان آمن داخل صنعاء المحتلة بمليشيا لا تقيم لحياة البشر وزناً يعد أجمل النعم، ولو كان جحراً ضيقاً، كل ما كان يهمني أن أبقى كي أكتب عن هذا الوطن في حقبة زمنية هي الأقبح فعلاً.

شعور بالمرارة ينتاب الجميع مما يحدث، الوقائع تعصف بنا، والحال يزداد وحشة وكآبة وغرابة.

لقد سُرق الوطن منَّا، أو تم بيعه في سوق سوداء، ككل شيء يُباع هنا.

"انتفاشة" عجيبة كما قال محمد قحطان المختطف في معتقلاتهم، "انتفاشة" لوباء يكاد أن يقضي على مظاهر الحياة في اليمن بأسره.

ما أقسى أن تكون مشرداً ومطارداً في وطنك.

تجمع بين الأمرَّين مذاقاً، البقاء في السجن الكبير، وخوف الاعتقال في سجن أضيق منه، قد تُطال فيه كرامتك وكبرياؤك من السفهاء وعبيد الأنعام.

حكايات الإهانة والتعذيب، تجعلك تفكر ألف مرة قبل الظهور في متناول الوشاة الذين يبيعون آخرين كالرقيق مقابل إغراءات تافهة، فماذا لو كنت إعلامياً مطلوباً بسبب كتابة مقال وُصِف بالخيانة العظمى للوطنية، ناهيك عن كونك محسوباً على إحدى الجهات المستهدفة منذ البداية.

أن تكون كاتباً مثقفاً تحلم بولوج عالم متحضر يجرّم الاعتقال السياسي وقمع الحريات.

وتجد أن وطنك يعود إلى الخلف عقوداً، إلى زمن السجون والمعتقلات، والعالم المتحضر يتواطأ بالسكوت على ما يجري على أرضك، وفقاً لسياسات لا تسمح لك برفع رأسك أكثر، كي يبقى وطنك منطقة هيمنة، وسوقاً مفتوحةً لهذا العالم المتحضّر.

ماذا يتبقى لك غير الشَّتات في أعماقك؟

الشتات شعور أكثر من كونه واقعاً ملموساً، أشعر أنني في شتات أكثر من أولئك الذين فروا خارج اليمن نجاة بحياتهم، إحساسك أنك فجأة لم تعد تنتمي إلى حيث أنت، يعجزك عن رؤية أي وجه مشرق للحياة قد تمر به مصادفة.

ومع هذا أجد الكثير لا يلتمس العذر لمن يشكون من مرارة الغربة.

اليمني لا يمكن أن يشفق على اليمني، حتى لو رآه مصلوباً على عمود إنارة، سيقال له إن الرؤية في مكانه هناك أفضل من شخص يمشي على قدميه في الأرض.

اليمني قصة اغتراب وتوحش لا تنتهي..

أشك بأنه هو الشعب الذي كُتب عليه التيه وليس اليهود.

ترى أبناءه دائماً مغتربين في أقطار الأرض، في حنين إلى وطـــن يعجزون عن العودة إليه مكرهين فلا حياة كريمة فيه.

هناك خارج الأوطان تنمو الوطنية في تربة صالحة للنمو فعـــلاً، ربما وأنت في قلب وطنك تكابد الجوع والإهانة، ويلاحقك القتـــل والجهل، تكره هذا الوطن، وتلعن وجودك مقيداً فيه، فـــإذا غادرتـــه اشتاقت رئتاك إلى أنفاسه المعتلة.

* * *

تكاثرت أخطاء التحالف في قصف مساكن أهال أبرياء، ووجدت لها من يبررها بحكايات لا تعني إلا أننا للأسوأ، وأن فجوة الشقاق في نسيج المجتمع تتسع لصالح الحرب.

قرى وطني التي لم تصلها أيدي الدولة بالمدارس والطرقات وصلتها قوات التحالف بالصواريخ والتفجيرات بعد أن تكدست في مرافقها الأهلية أسلحة المليشيا، وأصبح الموت ينتزع أكثر الناس شقوة وفقراً.

في أول قصف لمدينة إب الهادئة، كانت الضحية عائلة تتكون من تسعة أفراد.

فكما حدثتني زوجتي، انتشلهم الجيران، وهم في حالة ذهول وصدمة، ليس لهول ما حدث فجأة، ولكن لأن الأمر برُمَّته كان صادماً.

ما حدث يومها في إب كان صورة تتكرر في صنعاء بكثرة.. إب التي اعتادت الطيور أن تملأ سماءها، عربدت الطائرات الحربية في أجوائها، لقد كان أكثر الأصوات إزعاجا في قاموسها ضربات صاحب أسطوانات الغاز المنزلي على أسطوانة فارغة، وهو يمر لتنبيه قاطني المنازل لوجوده.

هالها ضرب الاستاد الرياضي بالصواريخ تباعاً، وصدمها أكثر قفز أحد تلك الصواريخ على منزل عائلة آمنة، نساؤها يشربن قهوة العصر برفقة إحداهن كانت نُفَساء، مولودها لم يرَ النور.

لاحقاً كثرت هذه الأخطاء، ولم نعد نحصي الضحايا بهول، بل نردد أن لكل حرب ضحايا أبرياء، وكأن لزاماً علينا أن نعيش الحرب والدمار.

توالت الفجائع متكاثرة في كل مدينة وقرية، واجتهد كل طرف في توثيق جرائم الطرف الآخر. الموجع أن الضحية لكل الأطراف هم بسطاء هذا الشعب بالذات.

***

"سماح" تلك المرأة التي قلتُ عنها يوماً إنها مرشحة للجنون، ليس لكونها عاشقة لصديقي عمار حتى المنتهى، ولكن لشدة هوسها بعملها الحقوقي، ومناصرة الحريات، وقضايا المرأة والمجتمع، ومن ثم فشل قصة حبّها تلك مع صديقي عمار بعد رحيله إلى جبهات القتال، متبرئا من كل عشق غير عشق الحرية..

سماح أصابها العقل فجأة..

رأيتها قبل بضعة أيام في مكتب سفريات لأحد الأصدقاء، كانت تبحث عن طريقة للخروج من اليمن، إنها تلك التي قالت يوماً: لن أترك وطني لأخدم أوطان الغير.

قلت لها مستفزاً:

- أخيراً فكرت بمغادرة الوطن الذي ربَّاك!!

ضحكت هازئة:

- وأين هو هذا الوطن؟ لقد جرفه طوفان الجراد بعيداً، سأذهب للبحث عنه، ربما نجده في أرض الله، لم يعد لي وطن في هذا الوطن.
- كيف تتركين واجبك نحوه، وأنت ناشطة حقوقية تسعى من أجل حقوق الناس وحرياتهم التي تُهدر بإسفاف؟
- ماذا جرى لك يا وحيد؟ أنا لن أقول عن نفسي ناشطة حقوقية في وطن لا يعرف معنى الحق، أنا لم أستطع انتزاع

أبسط حقوقي في هذا الوطن. فكيف أحلم بمساعدة الغير؟

نعم.. لقد أصابها العقل الذي لم أملكه أنا كي أخرج من هذه الحفرة، التي تلتهب كل يوم أكثر، سماح التي كان لها طموح بناء وطن، أدركت أنها تحرث في بحر مالح، فقررت الخروج قبل أن تُجنَّ فعلاً.

أما أنا ووعودي السرابية لعفراء بالسفر حيث هي، بعجزي عن اللحاق بعائلتي أو إسعادي لهم، بوقوفي الذاهل عن قرار يخرجني من حيرتي، لا أشبه سوى وطني معلقاً بشعرة أمل.

قصة الحقوق والقانون أصبحت مزحة سمجة فعلاً، شيئاً لممارسة صناعة النكتة في وطني، فهنا يُهدر الدم للاشتباه، وهنا يعود التفكير نحو المرأة إلى أرذل معاملة..

اليمن لم تخرج من النفق حتى نقول عدنا، ولكننا نغرق أكثر في رمال الفساد والظلم ليس إلا.

قالت سماح بانشداه:

- كنت أعرف سيدة متواضعة الحال، ربة بيت رائعة، لديها ولد تنتظر اليوم الذي يكبر فيه ويساعدها في هذه الحياة، أتعرف أين أرسلت فلذة كبدها هذا؟

لقد أرسلته لقتال التكفيريين الخارجين عن أمر السيد الذي طاعته فرض يقربنا من الله. المرأة تعتقد أنها ترسل ولدها لتثبيت دعائم المُلك الذي تركه النبي لأحفاده، وهو بهذا يقوم بأفضل عمل يدخله وسبعين آخرين من أهله الجنة. وبعد انتظار أن يكبر، كي يكون سنداً لها، عاد إليها مجندلاً كي تدفنه بالزغاريد وهي

تهتف: إلى الجنة يا ولي الله.
سأترك وطناً يعيث فيه أولياء الله قتلاً وتمزيقاً وكذباً.
سأترك ديناً يحتم عليَّ أن أكون عبداً لسيد باسم الله.

* * *

حزين حد الانصـــهار.. ألم محـــرق يتصـــاعد في صـــدري تدريجياً.

لم أكن لأصدق أن الحزن يمكنه أن يقتل فعلاً، لكنه أصبح يقتل كأي أداة قتل حادة تنغرز في جسد الإنسان، وتسيل لها دماؤه. لقـــد قُتل صديقي عمار، وهو يحلم بالحرية، عمار ارتقى برصاص قنـــاص كان يكره الكاميرا التي على كتفه، فاخترقها برصاصاته، ومعها رأس صديقي الفنان.

الحزن يقتل يا صديقي كالرصاص تماماً.

اخترق قلبـــي كرصاصة مفجعة..

- آه يا إلهي أين أذهب بدموعي إذا غافلتني لحظات اشـــتهاء لانسكاب، وأنا رجل لا يجب أن ينوح في ضعف بين أرتال الأعداء، كيف أظهر صمتي في ضجيج الألم، آه يا إلهي إذا خانني صبري في الحياة، فلتمدَّني بالعدم خيراً مـــن شماتـــة الحقراء.

مات صديقي.. مات صديق آخر، وأوشكت أن أبقـــى كمـــا السيف فرداً.

كم يشبه إحساسي هذا ما حدث لتلك المرأة حين علمتْ بموت ولدها الأكبر، رجل السلام في مدينة إب "أمين الرجـــوي"، لقـــد انفجرت دماء جوفها حزناً وتقيأت الحياة لخبر مقتل ابنها، بعـــد أن وُضع مع رفاقه دروعاً بشرية لقصف الطائرات.

لا يمكنني بعد الآن أن أثق بإنسانية بشري، أو أشك بإنسانية حيوان..

من يترك عدداً من الناس بانتظار الموت عنوة دون أن يسببوا له ضرراً، يتركهم وهو يتخيل مصيرهم الذي يعرفونه، وهم مكبلون بالحبال، ماذا يمكن أن يكون غير وحش تجرد من إنسانيته، أو هو وحش ارتدى إهاب إنسان.

من يترصد حياة فنان يحمل كاميرا يهدف لطمس الحقيقة، كي يرتوي بالدم ليس بإنسان.

عمار كالعشرات من أبناء مدينته تعز، نساء وأطفال ورجال لم يحملوا سلاحاً سوى قلوبهم الشجاعة، وقُتلوا قنصا وغدراً لأنهم عشقوا الحرية فقط، ورفضوا اقتحام المليشيا مدينتهم.

تترصدهم الرصاصات في المعابر الترابية، فتخلط دماءهم بتراب الوطن في وحشية لا يمكن تفسيرها إلا بالحقارة، يجازفون من أجل لقمة تشبع الأفواه الجائعة حين يمرون في معابر جُعلت لالتقاط أرواحهم، يجازفون بتلك الأرواح، لإنقاذ مريض يحتضر في انتظار أنبوبة هواء نقي اختفت من المستشفيات، فمات البعض انتظاراً لهواء أو دواء.

نساء تعز يتحملن فوق طاقتهن من أثقال كالرجال، ليظهرن حقيقة المرأة اليمنية التي خُلقت للبذل والعطاء حتى آخر نفس.

أطفال تعز حُرموا الدراسة لهذا العام، أسوة بكل المدن، ليقضوا أيامهم في ملاحقة الماء والبكاء من هول قصف المليشيا، وقنصها أرواحهم البريئة.

ستظل كوابيس مدينة تعز المحاصرة حتى من الهواء تلازم الجبابرة والطغاة، وكل من اختار الحياد خوفاً وصمتاً.

وسيكبر حزني بفقدك يا عمار، حتى نشيخ أنا والحزن، أو نموت معاً.

* * *

كان أول فَقدٍ خبرته في الحياة عندما جذب أحد سيول مدينة إب صديق الطفولة..

تكثر في إب مجاري السيول الضخمة القادرة على سحب سيارات كبيرة وزعزعة بيوت الفقراء والمهمشين، القائمة على ضفافها، فقد كانت تترك تلك المساحات القريبة خالية من الإعمار، فتبنى فيها خرائب البسطاء والمهمشين.

كان هذا فيما مضى.. أما الآن فمجاري السيل تصبح أنهاراً صغيرة، ترصف بعناية، وتترك لتلتهم طعامها من الذين يقتربون كثيراً للفرجة.

وهذا ما حدث لصديقي طارق، كنا في الصف الرابع الابتدائي قد خرجنا من دوام المدرسة المسائي حين اقترب من السيل الهادر كثيراً بعد مطر غزير ذلك المساء..

اقترب طارق يومها ممسكاً عصا المعلم، التي كان يحملها كل يوم كمسؤول عن الصف، كان يحاول التقاط علب الزيت الصفراء التي تندفع مع السيل بقوة.

لم أكمل تحذيري لصديقي ألا يقترب، فقد امتدت ذراعا السيل، وجذبت طارق بقوة إلى جوفه، اختفى طارق مع عصا المعلم وحقيبته الأنيقة، وكل كتب الدراسة، وصرختُ.. صرخت كثيراً، وصرخ كل التلاميذ حولي، وحاولت أن أتبعه لا أدري إلى أين؟ لكن الكثير من الناس تجمعوا، وأمسكوا بي جيداً، فقد

كنت أصيح بلا توقف، وأحاول القفز خلف طارق..

لم يحاول أحد أن يفعل كما في الأفلام التي أدمنت مشاهدتها حين كبرت، لم ينزع أحدهم حذاءه أو ساعته ليقفز خلف طارق، كان الجميع يعلمون أنه وجبة السيل المعتادة في كل موسم مطر في مدينتي، وأنهم ربما سينتشلون جثته بعد أن يهدأ السيل من مكان، ربما يكون بعيداً جداً عن منطقتنا.

كان وقت الغروب قد حل، وأنا واقف هناك، حيث اختفى صديقي للأبد، أناشد السيل ألا يؤلمه أو يخمد أنفاسه، وأن يدعه يخرج سليماً، كي نلتقي غداً ككل يوم.

كنت أبكي بحرقة وأنا أفكر كيف أعود إلى حارتنا، وألتقي بجارتنا "سميرة" وطارق ليس معي؟ ربما سبقها الخبر، وهي الآن تهيم على ضفاف السيل، تبحث عن شعر طارق المصفف في عناية، وقد بلّله السيل فلا يظهر أو يطفو.

أظن أنني يومها بكيت مقدماً لكل فقد عشته في حياتي، فلم أعد قادراً على ذرف الدموع بتلك الغزارة، أصبحت أتحمل حزناً أكبر ودموعاً أقل، وعوضاً عن النشيج أستمع إلى موسيقى مثقلة بالحزن، كطقس حزين ألفته حين كبرت.

ربما حصلت على حصانة مبكرة من الموت حزناً، فقد كنت أقترب منه، وأعود إلى الحياة، وقد مات جزءٌ مني دون أن أدري.

أصبحت قلماً يكتب الوجع، شراعه الألم، فلا يرسو إلا على شواطئ الحزن، أضعت مرافئ الفرح منذ أبحرت في الدنيا. كم من الفقد سأعدد في حياتي يا "فخري" وأنت سفير قلبي الأول.

***

ها قد أتى صباح جديد.

الصباح الذي كان صديقي ليوم جديد أصبح كابوساً يحل كل يوم، لشهور طويلة وكثيرة لم أعد أعدُّها، فعندما تستيقظ من فراشك البارد عاطفياً لغياب الزوجة، ولا تجد قطرة ماء كي تتوضأ للصـــلاة، أو تدخل الحمام لقضاء حاجة، أي يوم تبقى لك كي تبتسم فيه؟

ستنقض عليك الوساوس والمقلقات، كأنك تواصل كابوساً في منام ترى فيه أنك تحاول الجري، وساقاك مربوطتان بوهم الرؤيا.

ستجثم على صدرك ذكريات الفقـــد للأصـــدقاء، والمســـتقبل الغامض الذي ينتظرك.

الزوجة تبحث عن المال، لإطعام الصغار، والمؤجرة تحتاج مالها، ولا ماء، ولا كهرباء كي يعود هذا الماء، ولا عمل لتجلب المال لكل هؤلاء، نعم لا عمل، البطالة هي السيد..

أحسد أولئك الذين وجدوا أن الحياة دون حياة غير مهمة، إنهم يعيشون كيفما يكن، حتى يأتي الموت عبر أي وسيلة من وسائله غير المبهجة. ولكنه يريحك من عبء حياة الأموات هذه.

وأنا أرتدي ثيابـــي المتسخة، تذكرت أنني كنت أغادر صباحاً في أبهى حلة، تنتظرني سيارة جميلة ومكتنزة كسيدة حنونة، وفكرت بالكلمات التي يجب أن أقولها كل يوم لصاحبة البيت عن التراحم بين المسلمين في ظل الأزمة الخانقة التي يعيشها الناس، لشدة حرجي مـــن طيبة قلبها، وعجزي عن أن أكون أكثر طيبة كما عودت نفســـي،

سأخبرها عن مستحقات مالية قادمة من مكان بعيد، لا أدري حتى الآن كيف سأقسمها بين كل الأكف المنتظرة.

لقد نسيت في ضيق الحال والدة "بكر" التي كانت تنتظر زيارتي مطلع كل شهر، لعلها الآن ترثي لحالي، فلا بد أن هناك من سيقص عليها ما آل إليه وضعي وخساراتي.

كانت صاحبة المنزل كعادتها تجلس مادّةً ساقيها المكتنزتين في حوش البيت، تتلقى أكبر حصة من الشمس، كأنها تنافس ألواح الطاقة الشمسية لخزن الطاقة، فكرت أن ساقيها لا تنفعان لإضاءة ليلة واحدة لرجل محروم من النساء مثلي.

وجدتني أبتسم لتفكيري المنحط هذا، وحين شاهدت السيدة ابتسامتي ابتسمت بحرج، وهي تخفي ساقيها المغطاتين بسروال تقليدي محبوك الأطراف تحت عباءتها الواسعة، وهي تقول:

– صباح الخير يا أستاذ وحيد. هل تناولت إفطارك يا ولدي؟

طيبة هذه السيدة ذكرتني بوالدتي، التي ما كانت لتقبل خروجي من البيت دون إفطار، ألقيت عليها التحية، وقلت لها مبرراً:

– سأتناوله في طريقي يا خالة، سأذهب للبحث عن "مصاريف" لأرسلها للأولاد.

– لن تخرج قبل أن تتناوله معي أنا وناجي، سيعجبك فطير بلدتنا الساخن.

فاحت رائحة السمن البلدي بقدوم ولدها ناجي، أكبر أولادها، يقاربني في العمر، إلا أنه في الضفة الأخرى من اهتماماتي، رجل لا طموح له، هو محظوظ، ترك له والده عمارة كبيرة يعتاش منها هو ووالدته وزوجته وعدد كبير من الأطفال وأخوات وأخ آخر، إنه يدير

عمارته، ولا شأن له بما يدور خارجها، لكن ولاءه للعـــرف الـــذي ينتمي إليه جعلني النزيل المميز في عمارته، حين قدم بـــي أحمد النويرة ابن قريته إلى هنا، قال بحماسة: الأستاذ وحيد في عيوننا.

وكان الإفطار شهياً جداً، ذكرني "بالمُلَّوح" الذي تشـــتهر بـــه بعدان، حيث ولدتُ ذات يوم أخضر.

* * *

لا يمكنني أن أصف يوماً بلا عمل أو إنجاز، بالشاق والمرهق، لكن يومي كان شاقاً جداً، وأنا أتنقل من مكان إلى آخر سيراً على الأقدام، مضطراً للتخفي قدر الإمكان، أبحث عن هذا، أو أتفق مع ذاك دون جدوى.

حين عدت إلى الشقة الصغيرة مساء، لم أكن أرى أمامي شيئاً، ليس بسبب الظلام الذي اعتادته عيوننا، بل لأنني تذكرت أنني لم آكل منذ الصباح شيئاً سوى فطيرة الخالة أم ناجي، صاحبة العمارة.

نسيت الجوع، وأنا أفكر بكل ما ينتظرني من واجبات، والآن أشعر به يلسع جوفي بقوة، وأكاد لا أرى أمامي من شدة إعيائي.

بحثت طويلاً في الشقة ربما أجد شيئاً يؤكل، فقد سبق أن وجدت فيها أشياء كثيرة تخص الشباب الذين كانوا يقيمون هنا، وجدت علبة فول مدمس، كانت تبدو مثلي بحالة سيئة، لكنني فتحتها دون الاهتمام بتاريخ صلاحيتها، ورغم اللزوجة الخفيفة التي كانت تبدو في حبات الفول، إلا أنني تناولتها في ثلاث دفعات بسرعة، كي أنسى مذاقها الحامض كرائحة الأسفلت الحار، كنت أبدو كسيدة يائسة تتناول علبة دواء في دفعات ثلاث، كي تخلد إلى نوم أبدي.

ارتميت على فراشي منهكاً محبطاً، كما لم يحدث من قبل.

فكرت فيك يا عفراء..

كعادتي حين يشتد القيظ أفكر بواحتي البعيدة، كنتِ قريبةً مني في نفس الحجرة، تمسكين قلماً وورقة، وترسمين حروفاً ورموزاً،

وترينني كيف أصل إلى الله، لكنني لم أكن أريد أن أصل إلى الله..

كنت أريد أن أصل إليك أنت.. وأنت تتباعدين.

وأنا أخط بقلمي حروفك ورموزك التي تهمسين لي، أدس بينها كلمة "أحبك" فتمحينها بإصبعك وأنت تبتسمين، فتغرق الكلمة في دمعة كبيرة، ذرفها قلبي العاجز أمامك.

عفراء لماذا ترفضين كوني أحبك؟ يا لألمي.. أحشائي تتمزق ألماً.

لا أحد يريدك كما أنت؛ حتى الموت سيجردك من جسدك، ويصطحب روحك فقط..

استيقظت على نوبة ألم حاد في بطني تناثر لها خيال عفراء في الحلم.

اندفعت للحمام بسرعة وتقيأت، تقيأت حتى ظننت أن أمعائي خرجت أيضاً، كنت أتقيأ، وقد جثوت على ركبتي في أرضية الحمام المبتلة دون شعور، قوة الألم كانت تركّعني قسراً على الأرض، كنت أتشبّث بالبلاط الأملس عبثاً، وأنفاسي تتقطع مع دفعات القيء الحارقة.

لقد كانت علبة الفول منتهية الصلاحية، إنه تسمّم غذائي أو تسمّم عاطفي، لا يهم، كلاهما يؤدي إلى حالة وفاة غبية أشبه بانتحار.

بقيت أشرب الماء طوال الليل وأتقيأ، كانت عيناي تتّسعان كصحني فنجانين، حين بدأ الموت يزحف من أطرافي أزرق اللون بارداً، كان يسلبني الروح رويداً خلسة من نبض قلبي المتصاعد، أنفاسي صارت شعرات يقطعها لفحه القادم، لساني لم يعد مني، صار

صخرة تسدُّ ما تبقى من منافذ تنفسي، وشفتاي ما ارتوتا من رحيـــق فمي حين عجز لساني عن التحرك.. لقد زارني الموت، فهل ســـيأتي مرة أخرى بهذه التفاصيل المخيفة؟

مع أول خيوط الضوء، استسلمت للنوم أو الإغماء.

* * *

الموت لا يعقد صداقات مع أحد..

إنه فقط ينظر بازدراء إلى من يطلبه عنوة دون الموعد، قد يلتقي بك صدفة في أحد منعطفات حياتك، كي تتعرف إليه بنفسك. كم يبدو قاسياً وبارداً، يطلق أنفاسه في بدنك، فتتسع عيناك حتى المدى، ولا ترى حولك أحداً، تتثلج أصابعك، وترتعش وأنت تتشبث به للحظات، ثم يمضي بعد أن يتركك تواجه رعب اللقاء، فأنت لن تخرق ناموس الموت، وتختار زمن الرحيل.

الحياة جولات صراع بيننا وبين القدر، ننتصر مرة، وينتصر ألف مرة.

حين يفلتك الموت من بين ذراعيه شبه جثة شاخصة البصر، لا يعني أن حياتك غالية عليه، بل هي رخيصة حد التفاهة..

هي غالية عند أولئك الذين يحبونك حقيقة، ويهرعون لاستعادتك من فم الموت البارد، قبل ابتلاعك تماماً.

منذ أتيت إلى هذه الحياة، وأنت تكوّن علاقات بأشخاص قد لا تفي بكل حقوقهم، عاجز أنت أن تفي بحق نفسك، فتفكر بإزهاقها لا إراديا كل مرة تفشل في التفاهم معها.

أين أولئك الذين يحبونك يا وحيد؟

لقد أصبحت وحيداً فعلاً..

– أستاذ وحيد.. وحيد.. أستاذ وحيد؟

أفقت و لم أفق تماماً.. كان الصوت يأتي من مكان بعيد، وطرقات تصيب رأسي مباشرة مع كل هتاف باسمي، طرقات قوية، وكأن رأسي قطعة خشب يحتاج للفتح، وأخيراً اقترب الصوت..

إنه ناجي ووالدته..

حين أفقت المرة الثانية كان الأمر مختلفاً، كان هناك جارنا الطبيب، وإناء يتصاعد منه بخار يحمل رائحة شوربة حقيقية، كنت سعيداً ومحرجاً.

أخبرني ناجي أنهم شعروا بالقلق لعدم خروجي لليوم الثاني، واضطروا لخلع الباب عندما لم أجب نداءهم، قالت الخالة أم ناجي أنني بدوت مريضاً يومها، وأدركت بأني داخل الشقة لن أكون على ما يرام، ولا يوجد من يهتم بي.

لمثل هؤلاء الناس الطيبين حاولت يوماً أن أصنع شيئاً وفشلت، حاول الكثيرون، لكن طوفان الفساد والخيانة فتح أبواب الوطن على مصاريعها للدمار والخراب.

ما ذنب هؤلاء البسطاء كي تتلاعب بمصائرهم وأمنهم أهواء أقلية غلبها الطمع وعشق السلطة، وفي سبيلها يُضحّى بالأرواح البريئة وقوتها وسلامها.

* * *

أصبحت طريح الفراش في ضعف المرض والعجز النفسي عن مقارعة اليأس..

أهذي بك يا عفراء، يا وهمي الجميل..

واليأس نديمي من حال وطني ألجأ إليكِ في خيالي واحة من صنع أحلامي، تسكنني وأنا أبعد ما أكون عن سكنها، وكأني آتي بك رغماً عنك كل مرة إلى حلم يجمعني بخيالك، أراك باهتة الشعور تتعذرين بانشغالك، فأنت تحملين قضية في المهجر، مثلما أنا أرزح تحت عبء نفس القضية.

وأنا عالق في حلق الموت، أو الحياة عالقة في حلقي، أفكر هل يرضيك هذا الشقاء المبعثر في حواسي، لقد كنتِ يوماً صاحبة قلب يشبه الزجاجة، كأنني أرى محتواها، فلماذا أظلم البوح هكذا؟ لماذا قتلت الحرب فينا الحب؟

لم يعد يذكرني بعالم المشاعر الدافئة، إلا اشتياقي لك كلما لاح طيف خيالك.

فحتى نصيبي من الشعور كان الفقد.

لم أعد أتمنى أن أداعب أطراف أناملك، أو أقبلها، امتنانا للحياة التي ترسمينها في كياني، أصبحت متواضع الحلم، أحلم بصوتك فقط.. نتحدث عن الشعر الذي جمعنا عشقه، عن نزاريات قباني، وقصائد لوركا، تلك الروايات التي تبحثين فيها عمن يشبهني، وعمن تشبهك من أبطالها العاشقين.

نتذاكر شيئاً غير الحرب والدماء، غير الفقر والشقاء.

نتذكر الموسيقى التي تشبه صوتك في أذني؟

فهنا لا تصدح بجرأة سوى "زوامل" الحرب، داعية للموت من أجل الحياة، وأنا سئمت الموت من أجل الحياة، اشتقت للحياة من أجل الحياة.

هنا محرم علينا الغناء والحب والحياة، وحلال لنا الموت والشتات والبكاء.

هل تلاشت عفراء!!

لقد كانت تتداخل في خيالي بالوطن، كأنها تحل فيه أو يحل فيها.. لا أدري!!

في البداية كانت عفراء وطنا أتمنى تحقيقه.. ثم أصبح الوطن هو عفراء، الذي أصبو لعودته.. نعم أريد وطني المسروق من قبل الظلام والظلم والمليشيا..

وطني الساحر البدائي البكر، لوثه الغاصبون من الوافدين إليه بأطماعهم، وأحالوا أحلام مستقبله أنقاضاً.

وقتلوا فينا الرغبة في الحلم.

حالنا يبدو كحد السيف، وهو يتسلل في حزمة الأيام الغبية، ويقطع رباطها، فتتبعثر بلا قيمة..

يبدو كقاتل اللحظات، يكفنها باليأس والنسيان، ويودعها قبر الصمت.

***

لم يتغير الحال رغم تطهير مدينة عدن من سطوة المليشيا، وتناهي الأمل إلى القلوب بعودة الدولة إلى شرعية الانتخاب، كانت أصـــابع العبث والفساد تمتد في كل ركن تحت مسمى تنظيم القاعدة أو اللفظ الحديث "داعش"، إنها الأيدي المجرمة ذاتها بأسماء متعددة.

"عدن" عروس البحر الأسطورية، كم عانت في تاريخها كله من غزاة وطامعين بجمالها وموقعها، كم قاست غدراً وقتلاً واضطهاداً من غزاتها؟ ليغسل البحر أحزانها، وتنبت من جديد على ضفافه عـــروس بحر مكبّلة بشتات الوطن.

أصبحت عدن مسرحاً للاغتيال الممهنج، ومرتعـــاً خصـــيباً للتصفيات، فوضى أمنية تعبث بالمدينة الجريحة، عادت إليها عفراء آملة بمستقبل مختلف، وحين عادت لتجد أن الخطر ما زال رابضـــاً في أحشاء حواريها وفنادقها وحتى مجاريها، قـــررت الهجـــرة إلى الأبد.

في مراسلاتنا كانت حروفها تقطر وجعاً:

- عزيزي وحيد..

انتظرت كثيراً أن توافيني إلى هنا، كما كنا نتمنى ونحلم، لكنك لا تريد يا وحيد، أنت فقط تبقيني على مسافة حلم وأمل، كـــي لا يقتلني اليأس، تمنيت أن يأتي هذا اللقاء كثيراً في خيالي، حلمت بـــه، وأعددت له الكثير، كنت قد أطلت شعري كثيراً حتى نلتقي، فأنت تحب المرأة بشعر كثيف طويل، وخطتُ فستاناً قصيراً بلون الســـماء

حتى نلتقي، وحفظت أغنية صغيرة أهمس بها في أذنك حين نلتقـــي، لكننا الآن ربما لا نلتقي.

- آه يا عفراء. نحن منذ البداية لن نلتقي، كل شـــيء حولنـــا يقول: إننا لن نلتقي.
- لأنك تفكر هكذا.. أما أنا فأشعر أنه سيكون لنـــا لقـــاء، والكون كله من حولي يقول لي ذلك، لكن حينها عليك أن تتقبل رؤية تجاعيد وجهي، وتمسك يديَّ المعروقتين بـــذات الشغف، عليك أن تراني كما أراك دائماً يا "وحيد" حبيب روحي.

يا ألمي.. كل شيء أتمناه يتلاشى..

أيتها السماء.. إن شئت أن تهبطي على الأرض اهبطي، وأنـــت أيتها الشمس إن أردت ألا تشرقي مرة أخرى فافعلي، إن شاء الغرب أن يطبق على الشرق فليكن، فلم يعد في وطني وطن..

لقد علمتني أقداري البائسة أن يحترق داخلي بصمت، فلا تظهر رائحة حفلات الشواء في قلبـــي لحواسّ أحد.

إنها عفراء من ستبتعد هذه المرة ربما إلى الأبد..

وكأنما في عرف القلوب أن مَن عمَرَها بالحب، لـــه الحـــق أن يحرقها بالفقد، أحرق قلبـــي رحيلك يا عفراء.

* * *

ننام.. وخيباتنا لا تنام؛

تـأتي علـى شـكل رؤى، فتحيـل ليلنـا نهـاراً تؤرّقـه الخيبات..

http://t.me/almaktba / المكتبة الثقافية

مع انزياح المليشيات من عدن، أصبحت مدينة تعز هي قلب اليمن النازف، كل يوم دماء جديدة تُراق على مسمع ومرأى من قوات التحالف، مع التقاعس الواضح في نصرة المقاومة داخل المدينة المحاصرة، أو التوصل إلى حلول ترضي الأطراف المتصارعة بمصائر الأبرياء.

لا شيء في الأفق يدعو للأمل بأن شبح الحرب سيغادر هذا الوطن الذاهل من مجريات الأحداث وبطئها الشديد، بعد أن كان تسارعها يربك تفكيره.

محادثات السلام عند صناع الحروب تبوء بالفشل، وآمال البسطاء بتلك المحادثات أصبحت خيبات لشهرة الفشل، ونكث العهود.

من أجل سلام الجميع ومستقبل الأبناء، يجب أن نتعايش مع من نكره، مع من يقتلنا كل يوم، حتى لو أصبح في النهاية سلاماً ذليلاً ليس له مذاق السلام الحر، يجب علينا ابتلاعه ككل شيء في هذه الحياة رغماً عنَّا.

حتى أخبار انتصارات المقاومة هنا أو هناك تشبه حبوب المورفين، لتهدئة الأعصاب، وتخديرها بوهم النصر، كلما اقترب الجيش الوطني شبراً تراجع عشرة، لأسباب لم تعد مفهومة.

اليمني فقط من يرى حاضره إلى أي مدى أصبح بائسا لا يحتمل، هو من يعيش يوميات عجيبة يشتري فيها قوته وحاجته من

الوقود من سوق سوداء، صارت في كل ركن تستفز وتسخر من حلم المدنية، ودولة النظام والقانون.

الفوضى الأمنية وانتشار السلاح الذي فاق كل حدّ تعارفت عليه البيئة اليمنية، هدر الدماء لمجرد الاشتباه أو الاختلاف، الاختطافات والتصفيات الجسدية، كل هذا يثير في النفس اليأس من أن ينتهي هذا الكابوس.

المداهمات وانتهاكات حرمة البيوت، والاعتقالات التي لا تتوقف، إلا لتزداد كثافة لمجرد الانتماء، أو استنزاف المال من أهالي المختطفين والمعتقلين.

لقد كانت الدولة مُختطَفة لدى عصابة تستهدف التكسّب، وإلغاء الهوية في آن واحد، لا يردعها في ذلك شيء أو وعي.

ذلك المساء وأنا عائد من سعيي المعتاد لمحتُها، كانت تسير خلفي فعلاً في أزقة الحي المظلمة، إلا من شعاع باهت للقمر، لم تكن رجلاً، فما زال لدي ذلك الإحساس المرهف في التقاط ذبذبات جسد أنثى دافئ، لا.. لم تكن مخبراً أو متلصصاً، فهيئتها تتثنّى بليونة أنثى حقاً، وليس تصنعاً.

توقفت في مدخل عمارة أم ناجي وأنا أفكر: لو كانت امرأة، وقد عرفت أنني أتخفى هنا منهم، ربما ترغب في مكافأة ما، رغم أنهم لا يكافئون الوشاة مثلها، بل ربما تتعرض للإهانة كمكافأة بسببي.

فجأة وجدتها أمامي، تفصلني عن تحليلاتي للحالة القائمة، كانت تحاول الوقوف بشكل جذاب ومغرٍ، فقلت لها بهدوء مصطنع:

- نعم؟ ماذا تريدين مني؟

رفعت النقاب المهترئ عن وجهها الملطخ بالأصباغ، وقالت بغنج مقزز:

- ظننتك تريدني أنت.

قلت لها بهدوء حقيقي، وقد تناهى لفهمي مغزى حركاتها وعبارتها:

- لا.. شكراً. لا أحتاجك.

ثم قلتُ بصوت حاد، وقد فقدتُ كل هدوئي المصطنع والحقيقي:

- ما الذي يجعلك تفعلين هذا يا هذه؟ هل البلد ينقصه أمثالك؟ تبدين سيدة محترمة، فلماذا هذه الطريق الملعونة؟

بصقت قطعة اللبان من فمها، وهي تقول بصوت عنيف:

- إنه الجوع.. الجوع الذي لا يعرفه أصحاب ربطات العنق مثلك، لدي أسرة أُعيلها، وينتظرون مني مالاً وطعاماً كل يوم.

قلت لها بسخرية من نفسي:

- أنا أيضاً منذ أيام لا أجد ما يسمى وجبة مشبعة.. لكنني لن أفعل مثلك لو كنت امرأة، لن أعرض جسدي للذئاب، قديماً كان العرب يقولون: "تموت الحرّة ولا تأكل بثديها"، أي لا ترضع أبناء الغير بأجر وهي حرة، ولكنك أنت وأمثالك تأكلن بمؤخراتكن باسم الجوع. لا يا سيدتي، أنت لن تكوني حرة، ولن تنعمي بالحرية ما دمت تبيعين جسدك لمن يدفع، أنت عبدة لكذبك على نفسك، فلتذهبي

للتسول خيراً لك، يكفي هذا الوطن جراحات، حتى تقتلون شرفه أيضاً.

كانت تقف بصمت أمام خطبتي تلك، يبدو أنها سمعت مثلها قبلاً، وأنها لا تبالي بصدقها، فالخطب العصماء لا تسد الجوع، أو تسكت الأطفال المنتظرين.

قلت لها منهك القلب تماماً:

- انتظري هنا، سأجد لك شيئاً تأكلينه أنت ومن معك، أو مالاً تشترين به.

صعدت إلى شقّة أم ناجي، هي سيدة طيبة ومُنفقة، شرحت لها عن المرأة التي تقف بالباب في حالة يُرثى لها، وتستحق المساعدة، عادت أم ناجي من داخل منزلها بكيس من النايلون فيه طعام وخبز، ومدت يدها بحرج بمبلغ من المال، تتحاشى هي الاطلاع عليه، كي يحسب لها صدقة خالصة.

ناولت السيدة، وأنا أقول لها مودعاً:

- اهتمي بإنسانيتك، أرجوك..

* * *

تلك الليلة لم أنم..

لقد هزني تصرف تلك المرأة، التي عرضت نفسها بسبب الجوع..

في البداية كان ألماً وطنياً لشعوري بهول الكارثة التي أحدقت بأخلاق البسطاء من أبناء وطني، بسبب تردي أوضاعهم المعيشية، وارتفاع أعداد الفقراء والمعوزين واللاجئين والمشردين، ثم أصبح بعد ذلك ألماً عاطفياً، وأنا أتذكر المرأتين الوحيدتين، اللتين لمستهما في كل حياتي، أتذكر خشيتي من نفسي.

أنا الفتى القروي الذي يرى في النساء محاريب للصلاة، وليس للشهوة المحرمة، أتذكر حين امتدت كفي تتشبّث بكف أنثى غير زوجتي، وترفعها نحو شفتي في قبلة ملتهبة، أتذكر تلك الرعشة المنتشية، التي سرت في كل جسدي، حين اقتربت منّي عفراء، حتى تنفّست أنفاسها، وطوقت عنقي ذات يوم بعيد، لتمنحني الشهد بقبلة..

قالت يومها تبرر لي تصرفها:

- المرأة لا يملكها إلا من تحبه فعلاً، هي لن ترى نفسها خاطئة لو منحته أحضانها وقبلاتها برباط روحي فقط.

كأنها كانت تعلم ما يدور في رأسي من وساوس أذهبت سكرة تلك القبلة، يظل الرجل الشرقي لا يثق في أنثى أحبته، ومنحته نفسها، وإن أحبها، سيظل يفكر أنها امرأة رخيصة.

ما الفرق بين عاشقة ترضي نزوة حبيبها دون زواج شرعي، وبين امرأة ليلٍ تهب جسدها لمن يدفع الثمن؟

ستوضع كلتا المرأتين في سلّة السفالة والعهر في عيون رجل شرقي لا يعرف كيف تحب الأنثى، سيجد ما يبرر لنفسه السقوط في الخطيئة، ولن يجد لها سوى وصف السافلة.

لا سبيل إلى النوم، نهضت مكروباً، أجمع كل ربطات العنق الجميلة والثمينة التي أملكها، صعدت إلى سطح العمارة أتنسم هواء الليل الحزين والقاتم..

أشعلت أول ربطة عنق كنت قد اشتريتها لحضور مقابلة صحفية مع وزير فاسد، لعلها كانت سبباً في خنق عباراتي، التي كانت تريد أن تقول له: أنت سارق سيدي الوزير، أنت رجل غير شريف، تسرق الشرف من البسطاء، وتنسبه لك.

توالت اشتعالات ربطات العنق، حتى تلك التي أهدتني عفراء ذات مساء، ونحن نتناول العشاء خلسة من قرويتي المتزمتة في أحد المطاعم الفخمة، كنت أشعر أن حبال صوتي المخنوقة لسنوات تتحرر من ضغط ربطات العنق الملوَّنة.

كل شيء تغير فعلاً، إنما للأسوأ، لقد جنينا ثمرة السكوت عن الباطل والقبول به.

أصبحت الحياة لا تُطاق لي ولغيري من الملايين من أبناء وطني، ونحن نرى البلد يتدهور في كل شيء، هل هي النهاية في ظل انقلاب كهذا؟ هل سيحكمنا هؤلاء الهمج، فيجوع الشعب في سبيل الله، ويموت في سبيل الله، وتباع أعراضه في سبيل الله؟

الله الذي كان في قلوبنا أمناً، أصبح في جيوبهم سـرقة، وفي فوهات مـدافعهم موتـاً يوجهونـه إلى صـدورنا رصاصـاً وخوفاً.

روحي تنكر هذه النهاية، وعقلي يرفع تقارير مطمئنة عن الحياة التي تسير بشكل طبيعي، الناس ما زالوا يعيشون كما هم قبل عقـود يستلذّون عذابهم، فقد تعلموا أن المؤمن مبتلى، يصبرون على حالهم، لأن الله مع الصابرين، وينتظرون الجزاء في الجنة، لأنهـا دار الفقـراء والمساكين.

أنا لست الناقم الوحيد، ولست الغاضب الأكبر هنا، هناك مـن تفجر غضبه، ليحمل السلاح، ويهب روحه، لتصحيح المسار، أنـا فقط من كنت أحلم بتنقية الجذور من العوالق، أنا من أقضي أوقـاتي في تحليل الأسباب، وتخيل النهايات دون أن أصنعها، بين أمل ويأس، تتقلب حياتي دون جديد.

وحتى اليأس يتسلى بـي!!

كبر الهمّ من دمائي، وأصبحت أكـبر كـل يـوم عامـاً جديداً..

العالم يغرق في موج مظلم من المخططـات الـتي تشـكل مصيره القاتم، نحن نُساق بوضوح لنكون دولاً خراباً، مسـرحيات "داعش" المؤثرة في وطني ترحب بحضور دولي أقوى من التحالف المتراخي، هكذا يقول فصل ما من ملحمة الأوطـان الخـراب، حين تتدخل دول كبرى، لتسحق الأخضر واليابس مـن البشـر والحضر.

حين يُكتب التاريخ، لن يُلام لؤم الغرب ومخططاته لتمزيق رقعة

الجغرافيا العربية، وإخضاع أممها المتناحرة لسطوة الســـوق العالميـــة.. التاريخ سيحتقر حكام العرب فقط.

هم الخونة.. الأنذال من باعوا أوطانهم بشربة مجاري المصـــلحة الشخصية.

* * *

اشتقت إلى عائلتي..

فكل لحظة في غيابك عمن تحب، هي هباء في عمر من يحبك أنت.

هذه الشهور الطويلة مرت كأعوام ثقيلة أحملها وحدي، الآن فكرة السفر إلى مدينة "إب" لا تغادرني، وليس أمامي سوى التسلّل إليها عبر نقاط تفتيش تصطاد أمثالي من الثرثارين، توجعهم كلماتنا، فيردونها رصاصاً يخترق رؤوسنا، لكنني في حكم الميت، فلماذا لا ألقي نظرتي الأخيرة على أمي وأبنائي وزوجتي وكل أهلي.

تحدثت مع أحمد النويرة، منقذي الدائم، وصديقي الأثير، فطلب مني مهلة لأيام، كي يبحث عن سيارة مسافرة إلى هناك، يثق في راكبيها، تحاشياً لأي وشاية.

قضيت تلك الأيام في التقاط هدايا محببة، وخفيفة الحمل، للأولاد ولزوجتي وأمي، إن زيارة الأسواق الشعبية تجربة لم آلفها من قبل، فقد كانت كل المشتريات، ومن ضمنها ثيابي، وأشياء تخصني كانت من مهام زوجتي، لم أكن أسألها من أين، أو بكم؟ فقط هي تطلب، وأنا أدفع، ويعجبني كل ما تشتريه للبيت، ولها ولي أيضاً.

كذب أولئك الذين قالوا إن التسوق متعة، ربما يقصدون التسوق في غير اليمن وأسواقها المكتظة بالمقلد والزائف غالي السعر، لدرجة تشعرك أنك تسرق، ولا تشتري، ومع هذا أتعاطف كثيراً مع كل هؤلاء الباعة، الذين يفرشون بضاعتهم المتواضعة على الأرصفة،

يستجدون المارَّة الشراء أو القبول بالاحتيال، أرتضي احتيالهم بقلب مبتسم، فهم يطعمون بطون أطفالهم الجائعة، هناك من ينحني احتراماً للصوص الأوطان المتخمةِ كروشهم بأرزاق هؤلاء البسطاء.

أصبح من الدارج أن ترى نساءً من غير فئة المهمشين يتسولن على الأبواب، وفي الطرقات بهيئات تثير الشفقة، نساء كن مكرَّمات في بيوتهن، ففقدن العائل، وأخرجتهن الحاجة إلى هذا الحال، لكنك لن تجد بسهولة سيدة أربعينية ما زالت تحمل هيئة الشباب، وهي تعمل في "بسطة" لبيع الأحذية لمختلف الزبائن.

وجدتها ذات نهار على الرصيف في سوق عادة ما يكون مزدحماً جداً بالناس في وقت من الأوقات، وجدتها وهي ترتب بضاعتها وتنفضها من الغبار، وتعتني بوضع تشكيلة أنيقة ملفتة لجذب الزبائن، تعجبت من وضعها في زحام السوق، خاصة هذه الأيام، والشوارع تعجُّ بالبسطات والناس، بفعل قلة الأشغال والأعمال، وكلهم رجال، فبدا وجودها مستنكراً ليس لي فقط، إنما لكل من يمر جوار بسطتها، سيقف ليبايع قليلاً، حتى لو لم يفكر بالشراء، لمجرد الفضول والتندّر.

قلة من الناس، أولئك الذين يمتلكون الوعي، سيحترمون تصرف هذه السيدة، التي خرقت السائد والمألوف بتصرفها، وأصرّت على أن تُعيل أسرتها بالعمل، وليس بالتسول ما دامت قادرة بدنياً.

لقد صار من المتعارف عليه أن تلجأ النساء إلى أشغال محددة، كالخياطة، أو العمل في البيوت، أو انتظار المعونة من الآخرين.

ليس من المستهجن عند الناس أن ترى شابَّة تتسول، لكن من المستهجن أن تراها تبيع عقود الفل في الجولات وعلى الطريق.

نظرة الناس لم تتغير كثيراً للأنثى، التي تقتحم مجالاً للعمـــل، لم يكن مشروعاً من الأعراف والتقاليد، ما زالت هي تلك النظرة البدائية المشككة في أخلاقها وأدبها وحيائها.

أذكر في صغري أن مهنة ملائكة الرحمة "الممرضات" كـــان الناس ينظرون إليها شزراً، كأنها عيب وجرأة، حتى الآن لم أفهـــم لماذا؟ لكننا نتغير ببطء عجيب، وستظل نظرة المجتمع الـــذكوري قاصرة للمرأة، حتى آخر الزمان، ما دامت متوارثة بعناية، كعرف سائد لن يتبدل.

أنهيت فترة التسوّق التي أخذت من جهدي ووقتي الكثير، لكوني ولأول مرة أهتم بأسعار ما أشتريه، أكثر مما أهتم بنوع مـــا يمكـــنني الحصول عليه.

وأخيراً جاء اليوم الذي حدده لي أحمد للسفر، كـــان صـــباحاً مشرقاً لأوائل شهر سبتمبر المجيد، يمكنني أن أقضي عيد الأضحى مع الأولاد، وأحتفي أيضاً بذكرى ثورتنا العظيمة، السادس والعشرين من سبتمبر.

مناسبة كي أقول لصغاري، ماذا يعني لنا يوم الثـــورة المجيـــدة، وكيف يريدون طمس هذا اليوم، الذي لم تصـــنع أشـــعتَه شمـــس الضحى، بل صنعناه بأيدينا، كما نظم أبو الأحرار "الزبيري".

كلما أتت ذكرى ثورة سبتمبر، عادت بـــي الذكرى إلى ذلك الرجل الشامخ، الذي كان يرى في ولادة الجمهورية ولادة له هـــو، "عبد الله اليمني" كما يناديه رفاقه في الجيش، وكل من تعامل معـــه، وكما عرفته أنا، حين تعاملت معه في إحدى المعاملات الحكومية التي اضطررت لها.

لقد غادر صنعاء في أول أيام اجتياح المليشيا، لم يحتمل صنائعهم في جمهوريته التي عشق.

عبد الله اليمني كان يحب الصحفيين خلافاً للكثيرين، كان يعشق المبادئ العظيمة لحَمَلَة كلمة الحق، حتى أنه ألحق أحد أولاده بكلية الإعلام حباً في الصحافة، وقول الحق، وتنوير الناس، كما أخبرني ذات يوم جمعتنا فيه جلسة مطولة، وأنا انتظر إنهاء إجراءات معاملة لي في مرافق الدولة.

عبد الله اليمني رجل مفعم بحب الجمهورية والثورة السبتمبرية أكثر من أي شخص قابلته في حياتي، ذلك اليوم سألته بفضول، متى بدأ عشقك للجمهورية والثورة يا عم عبد الله:

همس بفخر، وعيناه تشردان بعيداً:

منذ طفولتي حين كنت ألاحق أمي بأسئلتي المستطلعة:

- متى ولدت يا أمي؟ فتجيبني بفخر:
- يوم "قرحت" الثورة يا عبد الله، ولدت أنت والجمهورية في نفس اليوم.

وكنت أرى فخرها ينتقل لي، فتزيد تساؤلاتي:

- لماذا قرحت يا أمي؟ ومن هي الجمهورية؟ فترد بلا ملل:
- لأن الناس تعبوا من الظلم والعبودية التي حكمتهم بها الإمامة، والجمهورية هي الحرية والكرامة، هي مستقبلك، ومستقبل أولادك.
- وكيف قرحت يا أمي؟

- انفجرت في قلوب الناس حباً وعشقاً للـــيمن وللحريـــة، انفجرت ثورة الأحرار ضد الطغيان، وأعلنوها حرية مـــن الأئمة الطغاة.

كانت تساؤلاتي لأمي وأنا في العاشرة، ما أزال صـــغيراً أحمـــل المحراث خلف الثور، وأرمي الحب في الأرض التي صارت جمهورية، بعد أن انتزعتها عائلتي من عسكر الإمام.

طلبت منه أن يقص لي قصة هذا العشق الفريد قائلاً:

- وماذا بعد يا عم عبد الله، لقد حدست أن لك قصة تشـــبه ثورتنا العظيمة فعلاً.

فاستوى على الأرض، وبدأ يسرد حكايته:

- لم يَطُل مكوثي في القرية، فقد ترك أبـــي وعائلته الصـــغيرة جدي وأعمامي لنستقر في المدينة.

قال لي أبـــي يومها:

- يجب أن تلتحق بمدارس الجمهورية وتتعلم، كي تحميها، فلا تعود أزمنة الجهل والمرض.

كان أبـــي قد ذاق مرارة القهر في سجون الإمامة، وضُـــرب القيد على رجليه سنوات من أجل قطعة الأرض، لقد أكل الجـــوع حتى شبع، وعاشر المرض حتى ضعف جسده، كان يقص عليَّ وعلى أخوتي، كيف أن الجمهورية، أنهت أسوأ أزمنة الظلم والقهر والجهل، وصنعت مستقبلنا الأفضل.

يلقننا قصائد الزبيري وسيرة أحرار الثورة كشـــيء مقـــدس، يقص علينا حكايات يوم لم تشرق شمس على أفضل منه في عمـــر اليمن.

أبـــي كان ذاكرة شعب وقلباً تألم، فكان امتنانه ليوم الســـادس والعشرين من سبتمبر، يوم مولدي، ومولد المستقبل.

لم أتمكن من إكمال دراستي، فبعد خمس سنوات من التحـــاقي بالمدرسة مات أبـــي، فقد كان أكثر إخوته ضعفاً ومرضـــاً، وبعـــد وفاته طلب منّا عمومتي العودة للقرية، لكنني صرت رجلاً كفاية، كي أحمل أعباء الأسرة، وتربية إخوتي، لذا تركت الدراسة، وخرجـــت للحياة، كي أطلب الرزق من أجلهم.

كنت أريدهم أن يتعلموا، ويصبحوا كما تمنَّى أبـــي من رجال الجمهورية، التي تغنَّى بها طوال عمري برفقته، ولقد قمـــت بـــذلك إكراماً لروح أبـــي، وتأدية لحقهم عليَّ كأخ أكبر.

ولأن أبـــي غرس في قلبـــي الولاء لجمهوريتي، لم أجد عمـــلاً يليق بـــي سوى العسكرية.

كل سنوات عمري التي كانت تتقدّم وتتراكم، صرفتها من أجل وطني الصغير "عائلتي" ثم وطني الكبير "الجمهورية اليمنيـــة" في كـــل عمل كنت أفعله، كنت أيّمّمُ شطر وطني.

لم أكن مسؤول دولة كبيراً يا أستاذ "وحيد" بل كنـــت ذلـــك الجندي المجهول، الذي لا يُفتقد إن غاب، ولكـــنني كنـــت أحمـــل المسؤولية عن كل ما تحويه أرض اليمن.

كنت أشعر بمسؤوليتي عن أشجاره وهوائه وسمائه وسلامة أناسه وراحتهم، مهما تسببوا في أذيتي يوماً من الأيام، ما داموا يحبون بلدهم وجمهوريتهم.

كنت أطمح أن أزيح عن خواطر الناس تلك النظـــرة للكـــائن العسكري، الذي ورث تراث عكفة الأئمة من النكاية بأبناء الـــوطن،

فعسكري الجمهورية ليس كعسكري الإمام..

حاولت أن أكون جندياً شريفاً..

وقاتلت سنوات طويلة من عمري في صعدة، معقل الإمامة، وحاضنة الشر الذي يتربص بالجمهورية، وفي إحدى المعارك الملتهبة بالرصاص والدم الساخن في محيط مركز مديرية غمر في منطقة قلّة البياد، وفي خندق واحد مع الرجل الأسطورة "جبران ضيف الله جبران" أُصبت هناك بشظايا انفجار مزَّق جهة كاملة من جسدي، ومنحني إعاقة حرمتني المواصلة.

و لم أيأس، بل قررت أن أخدم وطني في أي عمل أقدر عليه في مرافق الدولة.

أحب وطني يا أستاذ وحيد، ذلك الحب الذي إذا تشربت به الروح لا يزول، أو يفتر، مهما تنكر لك الوضع، أو تجاهل حقك من يسمى المسؤول.

لكنني كعاشق لهذا الوطن، كنت أعلم أن فيه الكثير من الألم.

كعسكري في مرافق الدولة، كنت أرى الفساد ينخر في الجسد الذي يضمنا، إنهم أولئك الذين نبتوا على أكتاف الأحرار كالطفيليات، وصار الأمر لهم، يتحكمون في رقاب الناس وأقواتهم، ويشوهون معنى الجمهورية، التي لم يؤمنوا بها.

الجمهورية ليست عرضاً عسكرياً لجيش يقمع شعوب الجمهورية نفسها، وليست أعلاماً فقط.

إنها الحرية والكرامة كما قالت أمي التي عاشت عهود الظلام الإمامية.

الجمهورية ليست عائلية أو محسوبية، إنها الحق لكـــل فـــرد في الوطن.

واستيقظت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر شابَّة فتيـــة في الحادي عشر من فبراير، تهزُّ عروش من حادوا عن الدرب، لتخبرهم أنها جمهورية، وليست عائلية.

وقمت بواجبـــي كما أراد أبـــي، أدافع عـــن جمهـــوريتي في ساحات النضال السلمي، فلن أدافع عن عائلة سرقت خيرات الوطن والشعب.

كنت في الخمسين شيخاً قد هدَّني طول الخدمة العســـكرية في كل عمل، كنت أقدر عليه، لكنني لم أترك للشباب فضل الدفاع عن أقدس أهداف جمهوريتي.. الحرية.

أُصبت في جمعة الكرامة إصابة بليغة، لكني لم أعد خائبا ألعـــق جراحي، بقيت حتى عاد كل فرد لأهله سالماً، ومن ارتقى شـــهيداً، ففي سبيل الحرية والجمهورية.

دفعت أبنائي ليكونوا جميعاً رجالاً لها، وحين ارتقـــى ولـــدي الأكبر في جريمة السبعين، الذي تناثرت فيه أشلاء عشرات من أبنـــاء اليمن، لملمت جراح روحي في سبيل الوطن.

فكيف لا تسري دماء الجمهورية وروحها في روحـــي، وقـــد عشت كل عمري لها.

حين قرر عبد الله اليمني أن يرحل إلى ساحات المقاومة هناك في مأرب، أتى لوداعي، فقد ربطتنا قصة عشق الجمهورية برباط أبدي، يومها قال لي:

- لم نكن نتخيل أن الأيام والسنوات حبلى بالغدر، لقد عـــاد

الأئمة على أكتاف الخونة، يقتطعون من جسد الجمهورية قطعة تلو أخرى، ونحن غافلون، لقد استحالوا سرطاناً يتفشى خارج صعدة، ويزحف نحو العاصمة ويلوثها، عادوا بحقدهم وعنصريتهم كسادة ونحن العبيد، فأين أحرار الجمهورية إن لم ينبتوا من جديد؟

كأنهم يريدون طمس يوم مولدي يا أستاذ وحيد، يريدون إلغاء وجودي، أنا اليمني، ولدت مع الجمهورية، وسيبقى كل يمني مع الجمهورية، لن يقتلوها أو يدفنوها، وأنا وكل وطني الكبير نحيا بها ومن أجلها.

سأحمل سلاحي وجراحي وأحزان أبي لو علم بمحنة الجمهورية، وأعود للقتال في جبهات النضال، أموت أنا، وتحيا الجمهورية.

* * *

اصطحبني أحمد النويرة إلى مكان انتظار السيارة في مدخل صنعاء الشرقي، كان امتناني له يفوق الوصف، ما أروعك يا صديقي، وأنت تحرص على أمن كل الأصدقاء وسلامتهم، وتعرض نفسك للخطر، كي لا تخسرهم.

السيارة التي كانت تنتظرني سوداء اللون، بهية، كغزالة أفريقية، ذكرتني بأسطول سياراتي التي تم نهبها، كل الركاب فيها شخصيات معروفة في مجال الصحافة والمنظمات الحقوقية.

إنهم ذاهبون كي يرفعوا تقريراً لمنظمة حقوقية شهيرة عن أثر عدوان قوات التحالف على مدينة إب، أسوة ببقية المدن، التي تم فيها قصف منازل مدنيين.

ولأننا جميعاً ندين سقوط الضحايا من السكان الأبرياء، كانت رحلة موفقة تخلّلتها بعض النكات البذيئة لكل الأطراف بلا استثناء، كما تم تجاوز كل النقاط التابعة للمليشيا بسلام.

الطريق من صنعاء إلى إب تستمر أربع ساعات تقريباً، تبادلنا فيها أحاديث مختلفة، لكن ما أن وصلنا إلى مشارف مدينة إب صعوداً نحو نقيل سمارة، بعد مديرية يريم، حتى فرض الجمال صمتاً متأملاً لسحر هذه المدينة، نسيم هوائها شيء آخر يخترق حواسّك، ليقول لك، تنفس عميقاً أنت في إب الساحرة.

وما هي إلا ساعة ونصف، حتى عانقنا ضجيج المدينة المكتظ في مدخلها القديم قرب "خليج سرت" حيث أقيم مخيم شباب ثورة

الحادي عشر من فبراير قبل خمسة أعوام.

ها أنا أسير مجدداً في شوارع تعانق خطواتي فقداً، فلطالما سرت فيها منذ تعلمت خطواتي الابتعاد، وكأنها التقطت وقع تلك الخطوات، فرحبت بالقدوم القلق، ببث سكينة انتشرت في كل بدني وروحي، هذه هي مدينتي المسالمة، التي لم ترفض أحدا من قبل، حتى الغزاة.

هذه مدينتي الخضراء التي صيَّرها خير تربتها مهوى أفئدة الإقطاعيين واللصوص وناهبي الثروات، هذه مدينتنا التي أبقت لنا من جمالها الفتات، بعد أن قطعت أوصالها أسر الإقطاعيين، التي جاءت من الشمال، لتنهب حق أبناء الأرض.

إب حسناء ترصّدها عيون نهشتها رغبة، فاستكانت للأيادي التي امتدت لها، وصار أهلها يتغنون بمقولة "إب الغنجاء كارهة أهلها ترحب بمن جاء".

رائحة التربة البنية القاتمة تملأ صدري بأريج الأرض، لكم افتقدت رائحة الأرض هذه بعد المطر، اشتقت إليها كما يشتاق الطفل إلى رائحة أمه، دوناً عن كل النساء.

آه كم أشتاق إلى أمي ورائحة أمي، حين تضع على صدغها أغصان "الشذاب" و"المشقر" فيصبح كل شيء فيها معطراً، "مقرمتها" السوداء و"مَصَرها" الأخضر، أنفاسها، وكلماتها تفوح بالريحان والمشقر.

أشتاق إلى صوت احتكاك مكنسة القش بجدار التنور المعدني، وهي تزيح بقايا الخبز المحترق، لتستقبل قرصاً جديداً ينضج على جدار التنور المتقد.

اشتقت إلى رائحة الخبز، وأمي تلقيه بين يدي ساخناً يفوح برائحة الشبع، وهي تقف بجوار التنور، وقد أصبح خداها أشبه بقرصي خبز ملتهب، فآكله قبلات حب.

أشتاق لطفولتي.. حيث لم يكن هناك سوى الأحلام واللعب.

وصلت بي سيارة الأجرة إلى مدخل حيّنا "وادي الذهب" كما يطلق عليه منذ القدم، لعل الذهب ذاك لم يكن سوى خير الأرض، حين كانت أودية عامرة بأعواد الذرة، وسنابل القمح والشعير الذهبية، الآن ومنذ سكنَّا المدينة قبل سنوات طويلة، اختفى الذهب لتحل محله الصخور المرصوصة بعناية لتكوَّن بيوتاً تضم أناساً من كل قرى محافظة "إب" ومناطقها في عائلة كبيرة هم أبناء الوديان الذهبية والجبال الشامخة.

"وادي الذهب" اختفت حتى تربته البنية التي كنت ألعب في وحولها وأنا طفل، لقد غطتها وحشية الأسفلت كما تغطي الأصباغ وجوه النساء الجميلات، فتفسد جمالهن.

الإسمنت لا يكتسح الشوارع فقط، فأحياناً يرصف القلوب أيضاً حين يعتزل بعضها بعضاً.

لقد أصبحت تربتنا البنية العطرة حين يهبط المطر في محميات الأحواش والحدائق البيتية فقط.

تسورها جدران الإسمنت أو معدن "الزنك" وهناك أيضاً بعيداً في جبل بعدان الشامخ، الذي يقاوم ثقوب المباني لجسده العظيم عاماً بعد عام، مثلما قاوم ضرب المدفعية حين صبت المليشيا غضبها على الجبل ورجاله الجبال أيضاً.

وأنا أطرق باب منزلنا، تناهت إلى أذني جلبة الأطفال، فطفرت الدموع من عيوني، كم اشتقت لشقاوتهم وضجيجهم.

وكما تمنيت.. أمي هي من فتحت لقلبـــي المنتفض الباب، كي يلقي بتعبه وإنهاكه في أحضانها، وهي تصرخ باسمي بفرحة أم:

- وحيد يا ولدي.

* * *

مرت أيامي في "إب" سريعة رغم خروجي الطفيف من البيت، بالكاد كنت أثق بالخروج فـ "إب" صارت معقلاً زاخراً للمليشيا وأعوانهم من أهالي المدينة نفسها.

صارت مدينة مكتظة بالنازحين وغلاء المعيشة يوماً بعد يوم.

ذلك اليوم صباحاً، وأنا أقوم بجولتي المعتادة بالسير في الشوارع الخلفية للأحياء السكنية التي يملؤها ضجيج الأطفال وهم يلعبون الكرة أو "الزراقيف" يلعبون كما تلعب الحياة بنا تماماً.

رأيتها وقد جلست على الرصيف، ينتصب ظهرها كمذيعات التلفزيون داخل جلبابها الأسود ونقابها الساتر لوجهها، لكن عينيها كانتا تحدقان إلى الفراغ، كأنهما لا تريان من حولها شيئاً، كانت نظرتها فارغة من الحياة، وقفت بدافع المساعدة التي تسري في عروقي وليس الفضول، فقد أصبح من المعتاد أن نرى في حياتنا اليومية مشاهد صادمة لإنسانيتنا.

لم تحرك هي ساكناً لفترة طالت في نظري، فاقتربت بهدوء محاولاً وضع مبلغ مالي في حجرها، حينها انتفضت قائلة بهدوء:

- أنا لا أتسوّل.

أربكتني كثيراً، مظهرها يدل على أنها لا تتسول فعلاً، لكن جلوسها على الرصيف شاخصة البصر يدل على غير ذلك، قلت لها بلطف شديد محرجاً ومعتذراً:

• أرجوك أن تغفري لي سوء تقديري سيدتي.

همست والدموع تتدافع إلى عينيها:

• لا عليك ربما يبدو جلوسي هنا مثيراً لظنك وظن غيرك.

ثم استطردت وكأنها فقط كانت تنتظر بعض اللطف كي تقص حكايتها:

- لم أولد على رصيف أيها الرجل، كان لي منزل كهذه المنازل. لكنني تركت بيتي خلفي.

و لم يكن مجرد جدران ضمتني أنا وأولادي وسنوات عمري وكفاح زوجي وصبري على غربته داخل وطنه، لقد كان سترنا الذي هُتك بالنزوح، وأماننا الذي فُقد بالحرب، وشبعنا الذي ذهب بالجوع والحاجة.

قلت بمواساة صادقة، وأنا أتلعثم حرجاً:

- لا ينزح المرء داخل وطنه سيدتي، إنما هو انتقال اضطرتك إليه الظروف، أنت من مدينة تعز؟

قالت والدموع تتدفق من عينيها وتبلل نقابها:

- نعم، لقد نزحنا إلى مدينتكم، وفي طريقنا إلى مدينة "إب"، بكينا كل شيء في مدينة تعز، شوارعها الموحشة بعد القصف وحواريها المقفرة بعد كل حزن، وهواءها الذي أفسدته الأنفاس المتكالبة على النهب والسلب.

بكيت على بيتي المتواضع، وتلك المشاقر المغروسة في الحوش، والتي سيسقيها القصف وحيدة بعد أن غرستها بيدي لأقطفها في أي فرح قادم فأحرقتها الحرب.

ما كنت لأترك بيتي لو علمت أن النزوح مـــوت آخـــر أيهـــا الرجل.

لكن الهلع على أرواحنا جعلنا نترك كل شيء خلفنا، ونهرب بما لا يُعوّض أو يُسترد.

هكذا كنت أظن..

لكننا فقدنا بالنزوح أشياء في غلاوة الروح وقيمتـــها، فقـــدنا كرامتنا، ونحن نتعرض للإهانة والتهميش في وطن يظن أهله أن كـــل من مسته الحاجة إما شحات ومتسول، وإما سارق نصاب.

زوجي الذي عاد ليضرب في أرض الله، كي يؤمن لنا القـــوت وإيجار دكان ضم أرواحنا والبرد والجوع كانت قـــد فصـــلته عنـــا مسافات طلب الرزق، لذا اضطررت للبحث عن أي عمـــل يـــوفر أبسط متطلبات الحياة لخمسة أطفال، كي أســـاعد زوجـــي الـــذي أخشى أن أفقد وجوده لتكالب الحياة عليه.

كنت أحياناً أطرق الأبواب التي أتوسم في أهلها اليسر، فتصدني نظرات تستنكر على سيدة مهندمة أن تدعي الحاجة ومظهرها لا يدل عليها، فهل كان ينبغي أن أمزق عني الثياب، كي يعلـــم النـــاس أن أحشائي تتمزق جوعاً.

كنت أقول لسيدات البيوت: هل هناك عمل أقوم به لقـــاء أي أجر؟

فتردني العبارات بالشكر وطلب الانصراف..

إن الخير في الناس يقل، ومن تعاطف معي أجده أقرب للحاجة مثلي، قلوب الفقراء أشد عطفاً عليَّ من دونهم، ربما لأنـــه لا يشـــعر بمعاناتك، إلا من لسعه الجوع يوماً مثلك.

حياة النزوح موت بطيء لمن لا يملك رصيداً في البنك، أو وظيفة يُحول إليه راتبها كل شهر.

هي شقاء من أنفاس الحرب، وعذاب يجعلك تتمنى لو كفّنتك جدران بيتك، قبل أن تفقد في طريق النزوح كل القيم والأمل والثقة بالآخرين..

وأين نذهب إذا لم نتراحم بيننا ونعرف أن الأيام دول، وهل دام لي بيتي ومشاقري، وهل كنت أدري أنه سيأتي يوم يكون فيه هذا حالي؟

وأين تذهب امرأة مثلي إذا مسها الضرر في مجتمع يتناسى أننا في حرب؟

هل أقبل على نفسي السير في طريق شائك، أو أغلق الدكان عليّ وعلى أطفالي، ونموت جوعاً.

لقد كنا مثلكم يا أهل البيوت الآمنة، وما كنا ندري أن الحال يحول بنا هكذا..

وإن بقينا على قيد الحياة سننتصر، ونعود لديارنا آمنين إن شاء الله.

تراحموا فيما بينكم، فبالرحمة قد يحدث النصر.

أنا لن أرفض مساعدتك يا سيدي، فهذا حقي عليك كما هو حقك عليَّ لو جئتني يوماً نازحاً مع عائلتك، هل تدرك هذا؟

قلت لها وأنا مبهور الأنفاس وجعاً وصدمةً وحزناً:

- نعم أعرف أن ما تقولينه حق يا سيدتي، فأرجوك شرفيني بقبول حقك عليَّ وتعالي معي فمنزلي قريب، لا تقلقي أنا سأحكي لك عني في طريقنا.

طوال الطريق وأنا أقص عليها مشاهد من حياتي، والدهشة تعربد في أعماقي، ليس لثقتها في اللحاق بي، ولكن لثقتي في أن أقص عليها مشاهد من حياتي أنا.

لم أسافر إلى صنعاء عائداً بعد أيام إلا بوعد من زوجتي وأمي بالاهتمام بتلك السيدة وأطفالها كأطفال لي وأخت جديدة بجوار أخواتي.

* * *

وما الموت على مبدأ حر معتّق بالكرامة إلا حياة الخلود.

كل صباح منذ سكنت عمارة أم ناجي تعودت أن أستيقظ على صوت مكنسة سعف النخيل، وهي تعارك رصيف الشارع المقابل لنافذتي في عداء يومي لكل ما تجمعه الريح طوال الليل من أوراق وأكياس فارغة يخلفها زبائن دكان الشاب عاطف.

كل صباح يبدأ هذا الشاب يومه في كنس الرصيف بعناية تحسده عليها المارَّات من النساء الكسالى، إنه طقس يومي يبدو أن الملل لن يتسرب إليه، يتلوه طقس تنظيف الدراجة النارية بعناية فائقة بمشاركة أخيه الأصغر مراد، صاحب الصوت الجميل عندما يصدح بأغانٍ شعبية، والذي تركها مؤخراً ليردد زوامل الحرب لكلا الطرفين بنفس الحماسة..

أحياناً أقف أمام نافذتي حتى ينتهي عاطف من طقوس صباحه المميزة، والتي يتخللها نهره لأخيه الصغير كلما أخطأ في تصرف.

عاطف شاب عشريني نحيل تظل إصبعه تطارد نظارته في محاولة لتثبيتها دون جدوى، يعيل أسرته من دخل الدكان المتواضع وسط الحارة، ومن مشاوير الدراجة النارية المتقطعة.

في عصر كل يوم وحتى ساعة متأخرة من كل مساء يصبح الضوء المتسلل للشارع من دكان عاطف ملاذاً لتجمع الشباب المراهق لتبادل الأحاديث، وتناول القات على الرصيف النظيف، أحياناً تنشب معارك كلامية بين الشباب، منهم من يؤيد ثورة المليشيا المزعومة ومنهم من يؤيد ضربات التحالف ضدها ليتفق الجميع على النظر إلى

إحدى المارَّات من أمام الدكان حتى تغيب، ثم يُستأنف الحديث ويعلو صوت النقاش والخلافات المعتادة.

لقد استيقظتُ بنشاط ربة بيت مثالية، كان يجب عليّ تنظيف المنزل المهمل كأي بيت يسكنه رجل لا يملك ذهنه المشتت طوال اليوم، ليرى أنه يقيم في مكان أصبح أشبه بحظيرة حيوان وحيد اسمه وحيد، لقد أبلغني الرفاق أن ضيفاً سيقيم معي لأيام حتى يستطيع السفر إلى المملكة مع فوج آخر من الهاربين، كل ما أعرفه أن هذا الشاب تم اعتقاله في مقر عمله لثلاثة أشهر كاملة، وهو يعاني أزمة نفسية خانقة بعد ما لاقاه من معاملة هناك.

كنت قد انتهيت تقريباً من تنظيف البيت مع أخذ عدة استراحات للقراءة وسماع موسيقى تساعدني على الاسترخاء، وصنع عدة أكواب من القهوة كلما شعرت بالجوع، كان البيت خالياً تقريباً من كل ما يمكن أكله حتى فطائر الحاجَّة أم ناجي كانت قد انتهت، مع حلول وقت الظهر تعالت طرقات هادئة على الباب، طالعني على إثرها وجوه رفيقيّ حسن وأحمد النويرة، ومعهما شاب آخر يبدو عليه النحول والشرود، أدركت أنه ضيفي في السكن، كانوا قد جلبوا معهم الغداء لذا كانت سعادتي بهم مضاعفة.

محمد شاب دمث الأخلاق يعمل مدرب تنمية بشرية في مؤسسة كبيرة ومعروفة، منظره الهادئ ولحيته الخفيفة المهذبة توحي بسلاسة الطبع، جميل أنه لن ينافسني على شيفرة الحلاقة كل صباح، أفضل ما فيه أنه لم يتزوج بعد، لذا هو حر تقريبا في تحديد مصيره القادم، ما أن يتجاوز صدمة ما حدث له وتزول علامات الانشداه المرتسمة في عينيه الواسعتين، حتى يعود إلى مرح سابق يبدو واضحاً

في سجيته وعباراته العفوية أثناء نقاشنا ونحن على الغداء.

قَدِم بعض الأصدقاء عقب الغداء، وقد جلبوا "القات" معهـــم، فكانت أمسية من الماضي الجميل.

صدح فيها صوت "أيوب طارش" يحملنا في تموجاتـــه لعمـــق الطبيعة اليمنية الموغلة في البساطة والتوحش:

عانقي يا جبال ريمة شماريخ شمسان
وأنت يا وادي القرية تفسح ببيحان
قالوا الأمس في صعدة حصل حفل طنان
والتقينا الجميع في عرس حسناء وحسان
با وزير صدر الحنا مع غصن ريحان
والتتن صدره والبن من سفح صعفان
والتقى الآنسي والمرشدي والقمندان
دان الا دان با نسمر على نغمة الدان
الحبايب سقى الباري ديار الحبايب
بين سيئون والحوطة وصنعاء ومأرب
قد جمع بالهناء والسعد شمل الأقارب
خل بالخل يتهنا وصاحب لصاحب
والأمور سابرة والخير من كل جانب
والعسل دوعني والبر من قاع جهران
دان الا دان با نسمر على نغمة الدان
حبـــي الأول الغالي ولي حبـــي ثاني
كاذية حسنها يسبـــي... قد سباني
سحر بئر العزب فيها ونفحة خباني

نور عيني منى قلبـــي وفرحة زماني
كل شيء ما خلا جبر المحبين فاني
عانقي يا جبال ريمة شماريخ شمسان

"أيوب طارش" حنجرة اليمن الصادحة بكـــل ألـــوان الغنـــاء الشعبـــي الساحر، لم يترك فنا إلا ووضع عليه بصمة صوت لا تُبارى في روعتها وتأثيرها على كل فئات الشعب وتوجهاته.

تحدثنا كثيراً و"خزنَّا القات" أكثر، وغرق كل واحـــد منّـــا في أفكاره الخاصة.

إنه المجهول الذي يتشكل أمامنا يخيفنا أكثر من أمور نعلمها.

مفاوضات جنيف الثانية رغم عدم التعويل عليها، إلا أن كـــل اليمنيين يترقبون نهايتها حتى بحذاء آخر، مفاوضات هنـــاك ومعـــارك ضارية هنا، وضحايا يسقطون في كل هدنة، واشتعال حرب.

في المساء عقب ذهاب الجميع وبعد جلسة قات طويلة الصمت والبحلقة في السقف طلبت من محمد أن يقصَّ عليَّ كيف تمّ اعتقاله، ربما كنوع من الخبرة الشفاهية، أو تمضية للوقت خوفاً مـــن ســـهر مرتقب بعد أمسية قات طويلة.

استرخى على المُتّكأ تحت ذراعه، وهو يتنهد بحرقة قائلاً:

- قصتي لا تختلف كثيراً عن عشرات من قصص الذين اعتقلوا بلا سبب.

ربما لأن هذه طريقتهم في فرض هيبتهم وسلطتهم كما يظنون، لقد كانوا في أول أمرهم في مدينة صعدة يقتلون شخصاً بريئـــاً مـــن سكان إحدى القرى التي ينوون فرض هيبتهم فيها والاستيلاء عليها، ويتركونه ملقى في طريق القرية، حتى يخاف قاطنوها ويغلقوا أبـــواب

بيوتهم على أنفسهم مع رحيل آخر خيوط النهار.

يفعلون ذلك فقط كي يبثّوا الرعب في نفوس الناس، ويؤمنوا تحركاتهم الليلية تحت غطاء الخوف الذي ملأ القلوب لحادثة القتل المروعة، فلا قيمة لدماء أحد في نظرهم.

إن لديهم مقولة معروفة في هذا الشأن صارت قاعدة تكشف أسلوبهم الإرهابي، إنها قولهم:

(اشترِ الليل بنسمة) ويتناسون أن القلوب التي تمتلئ بالخوف، لا بد أن يأتي يوم وتمتلئ بالكراهية والانتقام.

لقد نهجوا هذا النهج حتى في مدينتكم إب، فقد قُتل أشخاص كثر بطرق غامضة وبدون مسببات، فقط لإثارة رعب الناس وخوفهم، فتخلو الشوارع لإمداداتهم وتحركاتهم نحو تعز.

وهكذا هم أيضاً يعتقلون أشخاصاً لمجرد الاشتباه والظن، فالكثير لا علاقة لهم بالسياسة أو الصحافة، وأحياناً كثيرة لتحصيل الأموال من أهالي المختطفين، وأحايين كثيرة يُعتقل أي شخص يعارضهم أو ينوي معارضتهم حسب ظنهم.

ذلك اليوم كنت في مبنى المؤسسة منفرداً لبعض العمل الخاص بي، حين دوَّى صوت انفجار زلزل المكان، وأرعب المارين في الشارع، ومن كانوا في البيوت المجاورة، من النافذة لم ألحظ أي خراب أو حريق، فأسرعت لإغلاق باب شقة المؤسسة بالمزلاج، بالإضافة للمفتاح في قفل الباب، فكرت أنهم قد يقتحمون المؤسسة، وأنهم ربما افتعلوا الانفجار بقنبلة صوتية، كي يجدوا مبررا لاقتحامها أو اقتحام منزل آخر، لم تمر دقائق قليلة إلا وقد انفتح باب الشقة بقوة رغم قفلها المحكم، ربما بآلة صنعت لهذا الغرض.

اندفعوا كالقرود داخل الشقة، وأحاطوا بـــي من كل جهـــة، مصوبين إلى جسدي رشاشاتهم الآلية، واندفع آخرون لتثبيت أطرافي بقبضاتهم وتفتيشي بعنف، كأنهم يمزقون ثيابـــي من على جســـدي، ويدسون في جيوبهم كل ما يصادفهم في جيوبـــي حتى الساعة وخاتم خطبتي الفضّي، لو استطاعوا نزع ثيابـــي وارتداءها لفعلوا.

إنهم كقطيع من الجياع لما في أيدي الغير، هـــم لصـــوص الله، وليسوا مجاهدين في سبيل الله، نبشوا كل شيء في طريقهم، وجمعـــوا كل ما وجدوه في أدراج المكاتب، محاضراتي في التنمية البشرية ظنوها خططاً لمقاومتهم، فجمعوها أدلة لإدانتي أمام نفسي، أما هم فكل ما دونهم مُدانٌ ودمه مباح، كانوا يسألونني عن الموظفين، وأين يقطنون، ومن هم، ومن يمول هذه المؤسسة، وأين مديرها، وأسئلة لا ينتظرون إجابتها بل نفيها، كي يدفعوا رشاشاتهم في صدري وجانب وجهـــي بعنف وكراهية.

وأمام خزانة المال الثقيلة الموجودة في حجرة المحاســـب فقـــدوا رشدهم وهم يتخيلونها مليئة بالمال، طالبوني بفتحها وهم يكادون أن يفتحوا رأسي برشاشاتهم وصراخهم في وجهـــي بســـبابهم، ونعـــتي بالداعشي العميل لأمريكا.

تلقيت ضربات موجعة في بطني وخلـــف ظهـــري بأعقـــاب أسلحتهم، بصعوبة اقتنعوا أنني لست حاوياً حتى أفتحها دون مفتاح، حينها طلبوا مني حملها أو دحرجتـــها نـــزولاً إلى "الطقـــم" الـــذي سيحملني إلى السجن للتحقيق.

كانت الخزانة ثقيلة بسبب المعدن المصـــنوعة منـــه، ولقصـــور تفكيرهم ظنوه ثقل ما بداخلها، كانت فارغة وكنت في قرارة نفسي

سعيداً بخيبتهم القادمة، رغم مهانتي في دحرجتها وسحبها على درجات سلم المبنى، نزولاً وحتى سيارة الطقم، الذي أصعدوني إليه، بعد أن ربطوا ذراعي خلف ظهري، طوال الطريق إلى السجن حيث وصلنا، كانوا ينهالون علينا بالشتم، من نحن؟ نحن اليمنيون من غير أتباع سيدهم، نحن كلنا في نظرهم دواعش وعملاء لأمريكا، كانوا يرمقون خزانة المال بلهفة، وهم يدّعون الشرف والغنى، وأنهم ليسوا بحاجة لأموالنا التي ينهبونها من جيوبنا أو بيوتنا ومقرات أعمالنا، إنها لدعم جهادهم في قتلنا وتطهير وطننا منا.

نعم يفكرون بقتلنا بدعمنا، ولست أدري هل يفكرون؟!!

تؤلمهم عبارة أنهم يكذبون كما يتنفسون، فيلقون بالتهم في وجهي لتبرير فسادهم وكذبهم، يرددون في وجهي، أنتم لا أعراض لكم يا خونة يا عملاء، ستهبون أمهاتكم وأخواتكم لأي أمريكي يدخل البلد.

حين وصلنا مبنى الاعتقال وبعد التحقيق مع كل من تم القبض عليهم في منطقة الانفجار، تم إطلاق الجميع عداي أنا، وجدت المشرف عليهم يوصي بي ويقول:

- اعتنوا بصاحب المؤسسة كثيراً.

وكان الاعتناء واضحا في معاملة لا تمت للإنسانية بصلة ناهيك عن وطن مشترك ودين واحد، تم وضعي في سجن انفرادي بالكاد أمتدُّ فيه لضيقه، وقد امتلأ بأنواع الحشرات، مصمتٍ من كل الجهات، ما عدا فرجة صغيرة تعد نافذة.

وخلال ثلاثة أيام لم أغادر ذلك المربع كان هناك من يمدّ لي بقطعة خبز أو شربة ماء من فرجة ما يسمى بنافذة، منعوا عني زيارة

أي كان، وكل ما كان يصلني عبر البوابة ينتهي إليهم إلا النزر القليل والذي يبقيني حياً.

التحقيقات كانت عبارة عن تهديد وتعذيب جسدي ونفسي، هناك رأيت أشخاصاً قد فقدوا القدرة على تحريك أطرافهم لشدة الضرب المتواصل عليها بتركيز يجعل اللحم يفسد، ويصبح لونه أسود. كانوا يهددون بنزع أظفاري، إن لم أقل أسماء لدواعش كبار يحركون الشارع ضدهم في احتجاجات أو مظاهرات، وهل لفلان دخل أم لا، وهل علاّن اشترك في عملية كذا، أم من قام بها؟

كنت أردد على مسامعهم نفس الحديث: إنني مجرد حارس لمبنى المؤسسة ولا علاقة لي بأحد، وإنني يمني ولست داعشياً.

ذات ليلة أيقظوني في منتصف الليل تقريباً، وربطوا عينيّ بقوة جعلت آلام وجهي لا تحتمل، وأركبوني سيارة الطقم دون أن يخبروني إلى أين، وظلت السيارة تسير طوال الليل، أحاول أن أرهف السمع، أو أميز الطريق، هل هي مرتفعات أم سهول أم أين سيذهبون بي؟

وحتى الفجر عادوا بي إلى الزنزانة نفسها، وأنا في حال من الإنهاك الذهني والبدني والقلق والتوتر ما جعلني أسقط من الإعياء أرضاً حتى الظهر.

لقد كان يغيظهم مواظبتنا على الصلاة فينعتوننا بالدواعش، كأن ديننا ليس دينهم فلم نجدهم يصلون أبداً مثل كل السجناء، الغريب أن من كان يصل إلى السجن في جريمة أخلاقية كان يعامل بشكل إنساني يصل للحفاوة.

فقد وصل أثناء وجودي هناك رجلان بتهمة أخلاقية، كانا يتاجران بإحدى النساء الساقطات، فأصبحا مشرفين على بقية السجناء، ينظمان حركة المساجين.

ولعل المعاملة المتوحشة التي كنا نلاقيها هناك تهون أمام دروس العصر التي يلقيها واعظهم أبو حنظلة، كانت تُلقى من ملازم السيد الشهيرة، والكل يستمع إجبارياً، ثم تُؤدّى الصرخة المعروفة كشعار لهم إجبارياً أيضاً، وكأن عقول الناس أوعية فارغة تنتظر أن تسكب فيها ما تريد من هرطقات.

لقد أيقنت وأنا أعيش بينهم لثلاثة أشهر أنهم ضحية من نوع ما.

لقد غُسلت عقولهم من كل معاني الإنسانية والتفكير بصوابية ما يفعلون، هم على يقين أنهم يجاهدون أمريكا فينا نحن بني جلدتهم، وأن دماءنا وأموالنا حلال لهم، إنهم أشبه بقطيع من المنومين مغناطيسياً، تم السيطرة عليهم من نافذة الجهل، كيف حولوا الإنسان فيهم إلى عدوٍّ لكل شيء؟، لست أفهم.

لم يكونوا يثقون في أتباعهم ممن دفعتهم المصالح وشراكة التحالفات للرضوخ لهم، بل كانوا يقصونهم عن الأمور المهمة، ويتركون لهم اتساخ الضمائر والأيدي بكل شنائع الأفعال.

جلست ذات مرة مع أحد أفرادهم الذي أودع السجن عقوبة له بعد أن تعارك مع آخر ربما على غنائم من أحد البيوت اختلفا على قسمتها، وفي معرض حديثي معه قلت له:

- لا أدري كيف تحتمل رؤية مشاهد القتل والدماء، ألا تتمنى العودة إلى أهلك كي تعيش حياة طبيعية؟

قال متفاخراً وهو يهرش شعره الكثيف المحمل بأطنان الغبار والوسخ:

- لقد حملت بيدي هذه أكثر من ثلاثمائة جثة في معاركنا "بالضالع" وتعودت رؤية الدم حتى صار في نظري كالماء تماماً، إننا مجاهدون يا هذا، والجهاد هو القتل في سبيل الله.

نعم.. لقد أُلغيت فيهم نعمة التفكير، وأصبحوا أدوات قتل بأيدي طغمة من الأوغاد لا علاقة لها بما يدور بين الطبقات السفلى من البشر، ألم يقسموا مجتمعنا إلى سادة وعبيد؟ إلى أصفياء وحثالة؟ إلى حكام ومحكومين بالموت من أجل هؤلاء السادة وهذه السلالة وحقها الإلهي؟

ومن أجل ماذا؟ من أجل الوعد الأزلي بدخول الجنة..

لقد كانوا يتاجرون بالمعتقلين الأبرياء كالسلع فيطلبون مبالغ هائلة مقابل إخراجهم، ومن لم يدفع يُنسَ في معتقلاتهم ويموت جوعاً ومرضاً وحسرة من معاملتهم.

أنا لست نادماً على تلك الشهور المريرة رهن اعتقالهم، فلها منافعها في تربية نفسي وتهذيب ذاتي، وهي لم تذهب سدى في التحسر والحزن، لقد كانت فرصة لي كي أرى الوجه الأسود لمجتمع تفشّى فيه الجهل والفقر، إنهم أضل من أنعامهم للأسف، وأعتقد أنني لن توجعني مستقبلاً أي مصيبة بعد ما لاقيت منهم.

لقد أصبحت أرثي لحالهم، لجهلهم وقسوتهم، لاستغلالهم من قبل سادتهم، فهم مجرد عبيد وعبيد مأمورين باسم الرب.

الذي غيبني ثلاثة أشهر ومزق جسدي بأسلاك الكهرباء ومارس ضدي أقسى أنواع الإرهاب النفسي ليس القطيع من الوحوش، بل

ذلك القاتل الخفي الذي يستغله المجرم الكبير، إنه الجهل.

والجهل عدوي يا أستاذ وحيد، هو الذي حول جزءاً من شعبي إلى أداة قتل تتقرب للرب بقتل الجزء الآخر، الجهل الذي جعل سلالة تدعي القداسة وأنها الله في أرضه.

التقط محمد أنفاسه وهو يفرك وجهه براحتي يديه كأنما يعد المشاهد التي توالت أمام عينيه، كان يتحدث بألم كشخص استولى الغرباء على كل ما تركه والده من ميراث:

- الوطن لنا جميعاً فكيف يتملكونه وحدهم، كيف يقصونك وكأنك نبتة ضارة أقل شأناً من سلالتهم المقدسة، كيف يفكرون بتمثيل دين لا يعملون بوصاياه التي تجعلنا سواسية، إلى متى يُحدِثون شروخاً في مجتمعنا اليمني وتقسيم البشر إلى طبقات وسادة وعبيد ونحن صامتون.

سيحصدون يوماً نقمة هذا المارد اليمني المستكين، فلن نظل الدهر نجهل من هم وكيف وصلوا إلى بلدنا وحولوه إلى أشتات، سيحصدون غرسهم المرّ يوماً وكيف أساءوا لشعب احتضنهم كأقلية رفضت إلا أن تبقى عرقاً وسلالة لها تميز خاص وظالم لنا نحن.

نهضت أحاول إيقاف مد الألم الذي اعتصرني مع كل ما سرده محمد على مسامعي، إنها مأساة وطن هذه التي احتلت قلبي وقلب هذا الشاب الموجوع.

* * *

قال لي محمد ونحن نسير بين أزقة البيوت حين عودتنا من ضيافة أحد الأصدقاء:

- يكفي اليمن فخراً أنها كانت سبباً للإعلان عن تكتل عسكري إسلامي ضد عدو يتكتل في الطرف الآخر، ما حدث للعراق لم يوقظهم وما يجري لسوريا أرعبهم، لكن اليمن حركت جمودهم، هناك خطر أكبر من ثورات الداخل؛ إنها مؤامرات الخارج.

قلت له بيأس:

- هذه التكتلات لا تعني سوى حرب يتم الاستعداد لها، وإلا ما الداعي؟ كان حكام العرب وما زالوا قلوبهم شتَّى يبيعون أوطانهم لأفضل الدافعين وأقواهم.

هذا التكتل ربما لا يعدو أن يكون لعبة سياسية أو ورقة ضغط.

وليست المصيبة في مؤامرات الخارج التي نحيل كل أزماتنا عليها، هناك جهل الداخل وفساد العقول التي تدير هذا الداخل، هناك تراكم للأخطاء دون الاستفادة منها، هناك قصور في الوعي بحقك كإنسان في الحرية وحقك في الحياة وحقك في المعلومة وحقك في التعليم وحقك في قول رأيك دون خوف. إنها مصيبة العرب جميعاً يا صديقي، مثقفوهم يعشقون الكلام فقط وينفرون من التطبيق، وعامتهم متمسكون بما وجدوا عليه آباءهم والأجداد في كل شيء، إننا نستجرُّ تاريخنا وأحداثنا بلا ملل كأدوات بلا عقول.

إنها حمّى التحليلات والتأويلات تجتاح الإنسان دوماً حين يبحث في تفسير أو تطمين لما يحدث، هكذا واجه البشر منذ القدم أمورهم الغامضة، والتي لم تجد عقولهم طريقاً لفهمها، أصبحت السياسة لعنة تشبه لعنة الفراعنة القدامى ويمكن أن تكون السياسة مرادفاً للفرعنة، أليست الفرعنة هي الطغيان والظلم للآخرين كما نفهمها، إذاً هي السياسة بلا شك.

لقد أصابني إعياء القرف من كل الأخبار التي تتلقفها أذناي أينما ذهبت، أريد أن أنعم بعزلة التأمل في مقدرة الناس على التجاوز والتأقلم، حين يتجاوزون أوجاعهم وآلامهم وصدمات الفقد والخوف التي تصيبهم، ويستمرون في الحياة بحمل أخشاب صلبهم كل العمر.

الإنسان العربي ابن لحظته..

غير شغوفٍ بالمعرفة وكشف الستار عن غموض قد يُحاك ببساطةٍ مستغلّة لهذا العيب العربي القديم، تركز فضوله في جوانب غير مثمرة لحياته، ليس لأنه لم يتساءل عن سر سقوط التفاحة فحسب، بل لأنه أيضاً ترك غيره كي يأكلها. كثيرة هي الأحداث الأخيرة التي أزاحها عن الواجهة بعدم الاهتمام والمتابعة وغابت حقائقها مع ضحاياها طي الكتمان بسبب تناسيها وتجاهل ملاحقة فاعليها.

ربما يعود رقي الشعوب الأخرى لإصرارها على معرفة الحقائق، وأدق التفاصيل السياسية أو الاقتصادية أو حتى الأخلاقية التي تمس أمنها، كنوعية ملابس مونيكا لوينسكي الداخلية في فضيحة كلينتون، يصبح شعباً يُخشى جانبه وتُحتسب ردة فعله وتُحترم إرادته.

* * *

تعز.. ماذا يمكنني أن أكتب عن مدينة دموعها العطش، أوجاعها مبعثرة على الجبال والمنحدرات على صور أكياس قمح ودواء وماء لا يروي الظمأ، أطفالها جرحى يخافون وحشة القبور ويطالبون بالحياة بإلحاح القتيل، دماؤهم تسقي الأرض في طابور البحث عن قطرة ماء، قد تأتي خلسة من الموت، فيدركها بغتة بصاروخ كاتيوشا فتزدحم الجثث.

تعز هي صرخة "فريد" مستجدياً ألا يدفنوه، فما زال صغيرا يتمنّى اللعب.

تعز هي "ندى أمين" ذهبت كي تجلب الماء، فأُريق دمها.

تعز هي كل طفل ارتقى ألماً وصدمة.

تعز هي أعضاء الجرحى المبتورة وأجسادهم التي تئن وجعاً وإهمالاً.

تعز عصفور طليق حبسه الحصار بين الجوع وضرب المدافع، هي حرة أبت الأسر فنهشتها رماح الغدر، هي مسيح المدن الذي صُلب تكفيراً عن حقارة الخونة والجبناء.

تعز بناسها البسطاء وأحلامهم الكبيرة وُضعوا بين شقّي الرحى، كي يشعلوا بدمائهم قناديل حرية تعرفها أفواهنا فقط، فما زالت مكبلة بالخوف والصوت الخفيض.

تعز هي ذلك الشاب الذي غامر باختراق الحصار، كي يحضر الدواء لوالده المصاب بالسرطان، ثم اعتقل وغُيِّب، فمات الأب لا

يدري مصير ولده، ليست حكاية تروى عن إنسانيتنا المعذبة، إنها تعز.

وذلك الأب الذي فرّ بأطفاله من قريته المنكوبة بالقصف، لينسف حياتهم لغم أرضي زُرع كما يُزرع الحَبّ في الأرض.

وهذه ليست أقسى حكاياتك يا تعز.

ولا فتياتك اللاتي حملن السلاح دفاعاً عن الشرف، كل مفاخرك في القلوب.

تعز صارت قصة شعب رفض الذل.

وحصار يضاهي في ملاحمه أقسى الحصارات لحياة الإنسان والأرض.

في تعز تم حصار الهواء، فمات الأطفال اختناقاً في المستشفيات بلا أنابيب الأكسجين، وما زالت صرخة الأب الذي لفظ طفله الرضيع أنفاسه الخاوية من الأوكسجين تترد:

- اشهد يا الله طفلي مات وهو بحاجة للأكسجين.

سيذكر التاريخ حصار تعز الجائر وقتل الحياة فيها.

وستلعن الأجيال ذلك الذي لفظته تعز فحاصر الحياة فيها بالموت والحقد.

لقد امتلأت الجنان بأرواح أبناء تعز، وكم اشتاقوا قبلها للحياة.

هذا الوطن المنكود كيف يعيش وجزء من جسده يشتعل بالألم، كيف نمارس الحياة وتعز تعيش الموت كل هذه الشهور الطويلة؟

الصمت عن الحق هو أحقر أنواع الضعف.

ودائماً في كل ولاء يبتدعه الإنسان أو يكون فطرة في القلب هناك من يسقي شجرة هذا الولاء بدمه، وهناك من يقطف ثمارها في النهاية كحق.

هناك من يصنع الحلم براحته ومعاناته، وهناك من لا يستحق أن يجني ثماره ويتمتع به.

قلة أولئك الذين يتركون حياة متاحة في ظل الخنوع، ويبتغون الموت شرفاً وحرية.

قلة أولئك الذين يفعلون ما يقولون، لتبقى الكثرة للكاذبين.

قلة أولئك الذين صدقوا الله والوطن.

وكثرة عاشوا بلا حلم يحملون على ظهورهم قلة أخرى تستغلهم، وتعتاش عليهم كطفيليات البهائم تماماً.

يا الله أريد أن أقول أن هناك شيئاً خاطئاً في هذه الحياة، لكنني حقيقة لست أدري هل بسبب إرادتك العليا أم بسببنا نحن البشر؟

أعرف أنك ستغفر لي حيرتي هذه، غير أن وكلاءك في الأرض لا يغفرون.

الأحـرار هـم الـذين لا يملكـون شـيئاً في الحيـاة سـوى أرواحهم..

يرمونها حيث شاءوا..

وأنا أمضي في الطريق دون وجهة محددة، ساقتني قدماي إلى سوق شعبية مزدحمة بالبشر والروائح المختلطة بالمجاري التي طفحت في مكان ما من الشارع، كنت أتصفح الوجوه بنظراتي كأنّني أصافحها بحرارة.

منذ وعيت نفسي وأنا أشعر أني منهم.. هؤلاء البسطاء الذين تجعدت وجوهم دون سن الثلاثين، الذين كبروا على أرصفة الكفاح والشقاء، لم تحجبهم عني بدلتي الأنيقة أو ربطة عنق بمشبك فضي يلمع تحت الشمس، كانوا جميعاً داخلي في قلبي وعقلي، أحب بساطتهم في الفهم وردودهم التلقائية، فلم يرتادوا الجامعات أو نوادي الثقافة والتحذلق، أحب حتى كلماتهم البذيئة، وهم يحيّون بها بعضهم بعضاً كل صباح.

مررت بجوار سيدة مسنة تقف جوار بسطة للخضار، ما زالت تحرص على وضع النقاب وإن رفعت فجأة عباءتها حتى الخصر، وهي تتلمس جيب ثوبها الذي يشبه عباءتها تماماً، فظهر سروالها الأحمر التقليدي، الذي تلبسه نساء اليمن العجائز، كانت تبحث عن المال الذي تشتري به حاجيات البيت بحركة تلقائية دون تكلف.

تذكرت وأنا طفل صغير حين كنت أختفي داخل "عقر" سروال جدتي الواسع حين تجلس القرفصاء، وترفع ثوبها، فيظهر سروالها المطرز بالنقوش عند قبضة الساق فأهرع إلى تحت سروالها

العريض، وأتمدد عليه لتغطيني بثوبها، وأختفي من عقاب أمي.

لم تعد سراويل الجدات سوى تراث للعرض، بعد أن كانت رؤيتها عيباً وخزياً.

واصلت سيري وأنا أتمتع بذاكرتي حين تستجيب لما ينعشها من أفراح صغيرة نسيتها، أمامي صف من عربات اليد محملة بفاكهة رُصّت بعناية، في كل موسم يتاجر كل الباعة المتجولون بنفس الصنف في نفس الأماكن، في تعايش وإيمان كبير أن أرزاقهم قد قسمت سلفاً، وهم هنا لأخذ المكتوب من هذه الأرزاق فحسب، فلن يستزيد أحد على حساب آخر، إنهم يعاملون حبات الفاكهة بعناية ولطف، فيمسحون عنها الغبار، ويرتبون وضعيتها، كي تنادي الزبائن في إغراء.

ذلك المسن الذي احدودب ظهره لطول انحنائه على عربة رزقه، لا يتوانى عن إعطاء طفل صغير من المهمشين حبة برتقال بشفقة معدم على معدم آخر.

إنهم هنا مجتمع متماسك قد يتقايضون بسخاء نفس لا يوجد عند الأغنياء والمرفّهين، فصاحب عربة شطائر البطاطا الساخنة مع البيض سيقبل بحبة فاكهة أو حبتين مقابل شطيرة أو شطيرتين.

وصاحب المطعم القريب لن يتوانى عن توزيع أكواب الشاي على كل من جلس على حصيرة المطعم الشعبي لتناول غدائه المتواضع.

إن أكثر ما يصيبني بالحزن أن يفقد هؤلاء البسطاء طيبتهم وسماحتهم، إنهم عرضة دائماً لانتهازية الكبار، كانوا يتاجرون

بأصواتهم في الانتخابات، والآن يدفعونهم عنوة في المظاهرات، كانوا من قبل يبيعون حقهم في المستقبل، والآن يخسرون حيواتهم في مظاهرة يرتب فيها عمل إجرامي خسيس، يطيح بأرواحهم البريئة، لا يدرون لماذا أو كيف؟

هؤلاء البسطاء من الفقراء هم وقود الحروب وخلافات الساسة دوماً..

إذا لم يُخدعوا بالشعارات الزائفة خُدعوا بالأموال التي تصب لإغرائهم، قليل منهم من يعي اللعبة، وكثير منهم من يسير إلى الموت بحماسة وإخلاص المساكين.

هناك على رصيف مواجه للشارع العام، كانوا يتكومون بعضهم فوق بعض طلباً للدفء، إنه شهر ديسمبر أكثر الشهور صقيعا في صنعاء، العمال، أو ما نسميهم "بالشُّقات" لطالما اعتبرت تسميتهم بالشُّقات نظراً للشقاء الذي يكابدونه في طلب رزقهم، وإن كنت في أعماقي أطلق عليهم تسمية أحباب الله.

إنهم أولئك الذين تقف مباني اليمن والخليج على أكتافهم، من يخالطون الحجر والإسمنت، فترقُّ قلوبهم لله بالحمد والشكر على ما رزقهم من عمل تتشظّى له أكفّهم، وتنحني لأثقالها ظهورهم، وتتجعد لحرارة شمسها المحرقة وجوههم.

"الشُّقات" أحباب الله، ينتزعون رزقهم من عمق التعب والإنهاك، راضين بالقليل بفرح المؤمن، يرى الواحد منهم نفسه محظوظاً حين يجد عملاً في يومه، ولا يعود إلى بيته خائباً لا يدري ما يطعم أطفاله، لعلهم أكثر فئة عانت من أزمة الوطن الخانقة، التي انتهت بحرب مدمرة، فلا أشغال ولا تعمير، لقد أصبح التخريب

وتفجير البيوت بديلا لما كان من نهضة في العمران في مختلف مـــدن اليمن.

من أين سيجدون أشغالاً والناس قد فقدت الأمان والاستقرار، وأصبح التهجير والنزوح يفتك بهم، والأسعار في اشتعال، حتى صار همّ هذا الإنسان أن يؤمِّن قوت عائلته وكفى.

ربما لا يوجد من هو أسوأ حالاً من "الشُّقات" إلا فئة المهمشين التي كانت وما زالت أكبر شاهد على وضع البـــؤس الإنســـاني في اليمن، رغم محاولات الكثير منهم تجاوز هذه الخانة التي وضعوا فيهـــا ظلماً، فالتحقوا بالتعليم، وصار منهم المتعلمون والمدافعون عن قضيتهم العادلة، إلا أن الغالبية العظمى ترزح تحت جهل وقبـــول بالحـــال، يستعصي معه أي تغيير خارجي.

ما زالوا ورقة غامضة لحقوق الإنسان، لا أحد يدري متى تشتعل في وطن لا حق فيه لأحد.

في كل سوق شعبية هناك ركن مخصص لبيع القـــات، يفتـــرش بائعوه أحد الأرصفة من ساعة مبكرة، ويبدأون في الاحتيـــال علـــى الزبائن بشتى أنواع القسم.

كثير من الباعة تجدهم ما زالوا في سن التعليم بمختلف مراحله، وكثير منهم يعول أسرة ولا يحلم أن يجد من يتكفل بإعالته، ومنـــهم من فضّل مدرسة الحياة التي قد يتخرج منها إما فقيراً شريفاً وإما لصاً غنياً، وفي زمننا هذا قد يكون رئيساً للدولة أيضاً.

إن البؤس كله يجتمع في سوق شعبية للقات، يختلط فيه الخبيث بالطيب، ترى فيها السيارات الفارهة ورجلاً مقعداً يسير على ما تبقى من نصفه الأسفل، بحثاً عن نفس الهدف.. القات.

العابرون من هذا السوق لا بد أن يحملوا انطباعـــاً حزينـــاً يصيبهم بالكرب، ففي أسواق القات تتجلى مأساة اليمني بوضوح في أكله ولبسه وأحاديثه وطريقة تفكيره تجاه الأمور، وحتى بذاءته وحمقه.

* * *

لقد نسيت عفراء!!!

عفراء تلك التي تشبه الهواء.. لا أراها.. لا ألمسها، لكنني أتنفسها كل العمر.

في غمرة اليأس وتراكم الهموم نسيتها كما نسيت أشياء كثيرة كانت جميلة ومستحيلة القدوم.

لا شك أنه من الطبيعي أن أنساها، وغير الاعتيادي لو كنت ما أزال أتذكرها وأهفو إليها.

حالنا ينسي المرء نفسه فكيف بخيالات العاشقين؟

في الحقيقة لم أنسَها، فأنا ما زلت أتنفسها، إنما يجب أن أنساها.

أفضل طريقة للهروب من شيء يؤرقك ويعذبك حرمانك منه، هو الهروب إلى شيء يؤرقك ويعذبك أكثر، الهموم ينسي بعضها بعضاً، ونتداوى بالتي كانت هي الداء.

وهموم هذا الوطن دائي الكبير.

يجب أن أعيش من أجل هؤلاء الناس، شعبي الخاص، وليس نفسي وأمنياتي الخاصة، قد تبدو فكرة سخيفة، فربما أنا مجرد نكرة في هذه الحياة، لكنني أحمل همّ هذا الوطن، وهمّ أبنائه البسطاء، يجب أن أظل بينهم، وليس الرحيل خلف أوهامي، يجب أن أظل كي أخبر العالم بمعاناتهم، أبلغ عن الناس ولو وجعاً، كي لا يقتلهم الصمت والتجاهل أيضاً.

فهذا العالم يتجاهل البسطاء، ويساند قتلتهم بالصمت والسلاح.

حين تدرك أن لك قلباً شغوفاً بالحب..
لا تنفقه على فرد بسخاء؛ بل عش به للإنسانية جمعاء.
من يحيا من أجل الناس، سيعيش في قلوبهم ألف عُمْر.
أما العمر من أجل شخص واحد فسيمرُّ، والأحلام والأمـــاني ستموت تحت أقدام اليأس والزمن.
قضية عظيمة فقط تلك التي تنسيك قضاياك الصغيرة،
وأوجاع الناس المنسية فقط هي من تحيي قلبك الميت..
التلاشي من أجل الجميع يجمع أجزاءك المبعثرة.

* * *

إنه اليوم الأخير من عام النكبة على هذا الشعب الذي أحـــرق شجرة ميلاده بخلافاته وتشظّيه، بدلاً من أن يزينها بإنجازاته وتطلعاته.

وبمناسبة رأس السنة الأسوأ، ها نحن نتبـــادل التـــهم بالعمالـــة والخيانة، نتبادل القذائف والرصاص والموت المتاح للجميع كهـــدايا فيما بيننا.

إننا نستقبل عاماً جديداً بلا أحلام جميلة وملونة، فكل ما حملناه في قلوبنا كان أمنيات أن يكف الخراب عن أرض اليمن، ألا يزيـــد عدد اليتامى والثكالى في هذا العام الجديد، ألا يمـــوت المزيـــد مـــن الأطفال، ألا يزرع الطغاة المزيد من الألغام التي تحصـــد الأرواح، أن يشبع الجوعى، وأن لا يعرف البرد طريقه للعظام العارية من الكســـاء والغذاء، أن يشفى الجرحى ولا تبتر أطرافهم بدلاً من علاجهـــا، أن يعود الغائبون لأطفالهم، لأمهاتهم، ألا نبكي كثيراً لفراق من نحبهم.

أي أحلام في قلب هذا الشعب لا تثير سوى الحـــزن والبكـــاء أكثر..

أن يبدأ عام جديد دون أن يدشن بعمل عظيم هو عـــام ســـوء آخر.

فهل المشاركة في حملة إلكترونية لرفع الحصار عن تعـــز عمـــل عظيم؟

يبدو ظريفاً ورومانسياً قليلاً وأنت تجلس خلف جهاز اللابتوب أو الهاتف، وتنشر هاشتاك ببعض عبارات البؤس والشـــقاء، الـــذي

تمارسه تعز فعلاً وواقعاً، أشعر بالعار وأنا أظن نفسي مناضـــلاً بهـــذه الطريقة المريحة، نضال خمسة نجوم مع خدمة غباء راقية..

لطالما شعرت أن هذه الشبكة العنكبوتية محض خداع للـــذات وللآخرين..

لا يمكنك التكهن بمن يقف خلف آلاف المنشورات التي توجـــه الرأي نحو قضايا مصيرية بشكل يستخف بعمقها، وأحياناً بأســـلوب تهويل لا معنى له إلا البلبلة وإثارة الفتن.

حملة رفع الحصار يجب أن تتجاوز حوائط العـــالم الافتراضـــي وتقترب من أسوار الحصار الحقيقي لتعز، يجب أن تتحول الكلمـــات أيدي وأقداماً تزحف نحو تعز وترفع الحصار الظالم.

إننا كعادتنا في كل شيء نبرع في الخيال والحلم ونعجـــز عـــن التحقيق والوصول.

لهذا يظل الطاغية مطمئناً لكون التشدق بالكلام يظل كلاماً، قد يعاقب قائله ولا يُثاب تاركه.

لطالما طبق العربـــي المثل القائل "نســـمع جعجعـــة ولا نـــرى طحيناً".

أنا لا أقلل من تأثير كلمة الحق فسيبقى الكلام عملي الرسمـــي الذي أعتاش منه في نهاية المطاف، لكننا لسنا البلدان المؤهلة لســـماع الكلمة حتى نتأثر بها، إننا ندخلها من فتحة الأذن، لتخرج من فتحـــة الفم دون العبور بموقع العقل والتفكير.

تمر كنفاية أو جوهرة دون أن نقـــدّر دلالاتهـــا أو نســـتفيد منها.

لكننا نحاول قول كلمة حق في وجه جبروت ظلم.

كلمة حق دفع من أجلها الكثير حياتهم، والبعض حرياتهم خلف القضبان.

البعض اغتيل من أجل كلمة حق إذا لم تخرج من الحلق تخنق.

فسلام لأولئك الذين يتركوننا في منتصف الحياة، ويعبرون مضيقها ونحن عاجزون..

سلام لكل الراحلين وهم يتشبثون بكرامتهم كي يموتوا على قيد إنسانيتهم.

الكرامة خيوط تربطك بإنسانيتك، وكلما تنازلت عن كرامتك قطعت خيطاً يربطك بهذه الإنسانية.

وسحقاً لأولئك الصامتين المحايدين، حين يقتلنا حيادهم مرتين.

قد يأتي اليوم الذي نغفر للكثير ثرثرتهم الفارغة، لكننا لن نغفر لآخرين صمتهم القاتل.

أولئك الذين يكذبون كي يزينوا القبح الكبير بأفواههم، يجمِّلون الحرب، ولا أحقر من الحرب إلا الكذب فيها..

أي ألم أكبر من أن تكون لا شيء، يمر العابرون على جرحك بأحذية صنعوها من أنفاسك وأناتك..

صنعوها من قلقك ومن وجعك.

يقتلونك أو يحكمونك..

يوم سيئ ذلك اليوم الذي أستيقظ فيه صباحاً، وأنا أشعر أن النوافذ تطبق على أنفاسي رغم اتساعها، بل وتخرج لي لساناً وهمياً لتستفز صبري.

وحين دقت يدٌ ما باب شقتي بإلحاح رفضت حتى سماع تلك الطرقات، لأنني لا أرغب في رؤية أحد، بل إنني وجدت نفسي أكيل

الشتائم لصديق عبر الواتس دون مناسبة معينة، وانتقمت من ذاتي بترك القهوة تبرد كثيراً، وأنا لا أطيقها باردة.

نوبة اكتئاب تعتصرني في وحدتي هنا، كلما توغلت في التفكير: إلى متى يظل الحال هكذا؟

أحياناً ينتابني الخوف من نوبات مزاجي الحاد والمكتئب مثلي مثل من يحيط بي، أترقب برعب انقشاعها كمحارب إغريقي يخشى غضبة آلهة جبارة تمسك بخيوط راحته بيدها العابثة.

قد أضع نفسي في حجر إرادي كي لا أؤذي الآخرين بكلماتي المتطايرة كالشرر، وأنا أكره كثيراً الاعتذار والمراضاة..

أتلهف لرؤية ابتسامة المزاج الخاص بي.. ماذا تبقى من أعداء لي غير نفسي؟

ما أقسى تطرف الشعور!! التطرف في الحب والوجع والحزن والشوق..

وما أقسى التطرف في الجنون أيضاً، فليت الحزن ثوباً كلما ارتدانا ننزعه.

رسالة تصل عبر الهاتف من رقم مجهول تقول بفجاجة هاتفية "لو استطاع قلب أن ينفض من بين ضلعين فراراً من فكر صاحبه لكان قلبك يا وحيد"

رسالة صادقة فعلاً.. يا لقلبي المسكين.

أنّى لصاحبها المترحم على قلبي أن يشعر بما يختلج فيه، إنه تقريباً يتعرض للسلق كل لحظة تفكير، كم أصبحت الحياة غريبة ومقفرة، كل يوم نسمع خبراً مفاده أن صديقاً قُتل في جبهة قتال، أو أن آخر رحل إلى أبعد ما يمكنه عن هذا الوطن.

المفزع في قضايا الرحيل على اختلافها هم أولئـــك الراحلـــون، أصبح المغادرون عبر بوابة الموت شباباً سيفتقدهم المستقبل، والراحلون عبر بوابة المهجر هم تلك العقول التي تهتم وتئن لوجع الـــوطن، ولا حل سوى الهروب.

كأنما لم يعد في الوطن سواك يا وحيد..

الرفاق ينسلون من كف الوطن تباعاً، حتى أصـــبحت وحيـــداً فعلاً، تسير في شوارع صنعاء كأنما لا تعرفها ولا تعرفـــك، تلتقـــي الوجوه كأنما لا تراها أو تلاحظك.

أصبحت غريباً في وطن غريب، وحيداً كأنك وحيد..

أي طاعون هي الحرب، وأي طوفان بعثر أبناءك يا وطـــني؟ أي سيل عرم يلاحقك منذ غابر الزمن؟

لقد أجمع من تبقّى ممن يعرفونني على أن "صاحب الابتسامة" لم يعد قادراً على تحمل الابتسامة فوق شفتيه. لقد أصـــبح صـــاحب الانتكاسة..

لا.. لا.. صاحب الانتكاسات الوفيرة، منتكس وطنياً وعائليـــاً وعشقياً وحياتياً.

* * *

وكأن الخلاص يحيط بصنعاء من جهاتها الأربع كما يتراءى لنا، يستيقظ الناس من سباتهم حين يدركون أنهم سيفقدون الأرض من تحت أقدامهم، إذا لم يثبتوا تلك الأقدام عليها بقوة، تحشد الأرواح من الطرفين في قتال متوقع، والتوقع هو تسليم سياسي، كل طرف يظن أن الكلمة الأخيرة ستكون له، فقط أولئك الذين سئموا كل الكلمات الأخيرة في قواميس حياتهم، لا يهمهم لمن الكلام اليوم، فالموت هو من يقول كلمته الأخيرة دائماً..

هل يعود الشهداء إلى أطفالهم ويعود الجرحى أصحاء في حياتهم؟

هل يعود الوطن يوماً؟

هل يعود كل الرفاق الذين غابوا؟

هل تعود عفراء من الشتات؟

هل سيعود قلبي أخضر يحلم ويبتسم.. بعد أن غارت الابتسامة..

لا شيء سيعود كما كان..

تحقق ظهور شبح المفاوضات هذه المرة بقوة مخزية بعد تقدم الجيش الوطني والقبائل نحو صنعاء، ولم تكن المليشيا نداً في هذه المفاوضات أو طرفا له ثقل، المليشيا التي أذاقتنا المرارة، ها هي تحمل غصن زيتون محروقا للسلام، وتذهب صاغرة للتفاوض مع التحالف في عقر داره، تلك الأيدي التي أشهرت في وجه الشعب كل الأسلحة الممكنة، تغسل نفسها من دماء ضحاياها من المجندين والمخدوعين

أطفالاً ورجالاً، وتعلن المفاوضات بعد قدسية الجهاد ضد تحالف الشر، بعد أن ملأت المدن بالمقابر لشباب وأطفال فيهم الكثير من المجهولين، الذين لا يعرف ذووهم في أي أرض قُتلوا أو دُفنوا.

في قناعة روحية أو تبلّد.. لم أعد أبالي بما يؤول إليه مصير المفاوضات، أشعر أحياناً أنها عملية مماطلة فقط، لتأخير الحسم عبر القتال ولا جدية فيها.

هناك من استبشر خيراً أنها ستفرج على هذا الشعب المكابد، لكنني ليقين يخالجني أدرك أن السلام لا يحل في بركة من الدماء.

أولئك الذين لم يفقدوا حبيباً أو داراً عامرة أو هُجّروا أو مستهم الحرب بأوجاعها المتباينة، لم يجدوا في تلون آرائهم أمراً منفّراً، فصديقي المتعصب للمليشيا، والذي أثخن قلبي وجعاً وقرفاً بمغالطاته عن قوى التحالف والمقاومة، لم يجد حرجاً في الدعاء لوفد التفاوض بالتوفيق في نصرهم الأخير، لقد اعتبره نصراً آخر لمليشيا الموت.

كانت لديه قدرة عجيبة على تطويع الأخبار، بحيث تلائم تفكيره، قال منتفشاً في جلسة جمعت كل الأطياف:

- نحن نفاوض في أوج قوتنا وعزتنا..

نعم.. بمثل هذا الصديق تصبح الحياة لعنة كبرى.

وكعادتها مفاوضات قضايا الكرامة لن تنجح مهما تخيلنا ذلك.

مهما تواطأ زعماء العالم على سلب حق الشعوب بالحرية والكرامة واختيار من يحكمه، ومهما كان ضعف تلك الشعوب تظل القضية مسألة إرادة وكرامة.

كلما لاح شبح المفاوضات اختفى بين غبار المعارك.

وحدها تعز فقط من تصنع مجدها مجدداً ووحيـــدة كالعنقـــاء، تنتفض من رماد يأس الخذلان، وكأنها تعلن أن لا تفاوض على أشلاء الأطفال والأهالي الآمنين، الذين قُصفت منازلهم على رؤوسهم، تعز رفضت منحى التفاوض الذي لجأت إليه المليشيا، والذي قد يذهب في طريقه حق النصر لها بقوة وكرامة.

لقد أعادت إلى الحق رونقه وقوتـــه بمكابرتهـــا وكبريائهـــا وعنادها..

فماذا لو حدثت تسوية وانسحاب يُتفق عليه هناك في الرياض، طالما تمناه الجبناء واليائسون من النصر هنا وهناك، أكان له مذاق هذا النصر الصافع والمدوي في وجوه كل من يظنون أن كرامة الشـــعب مستباحة بحق إلهي مزعوم، ورغبة في انتقام محموم من عجوز مجنـــون حكم اليمن ثلاثة وثلاثين عاماً و لم يكتفِ؟

لذا صار من الطبيعي لكل المصفوعين منهم بأحذيـــة المقاومـــة، وأيضاً الأغبياء منهم ترديد قصص خيالية ومفبركة، تشوه هذا النصر العظيم الذي تُوِّج بصبر ومعاناة أعظم.

ذلك الصباح أتى إليَّ عيسى مودعاً قلت له محزوناً:

- إلى أين يا فتى، ألم تعد تحلم أن تصبح إعلاميـــاً تترصـــدك الفتيات كي يلتقطن معك الصور؟

ابتسم وهو يتذكر عبارته السخيفة عن تهافت الفتيات لالتقـــاط الصور معه كشخصية مشهورة، وهزّ رأسه نافضـــاً الفكـــرة الـــتي عششت في حواسه قبل مخيلته، فقد كان أحياناً يقف ليتخذ وضعيات ملفتة للتصوير، تجعل كل من في مكتب التوزيع والإعـــلام ينفجـــر ضاحكاً إن لم يقذفه بأقرب شيء في متناوله.

عيسى شاب بلغ به الطموح حداً مزج فيه بين خياله وواقعه، لا شيء كان سيوقفه عن تحقيق حلمه في البروز والشهرة إلا مليشيا الخراب، التي قوضت في نفوس الشباب حتى الخيال، ها هو يترك عالم الكلمة، ليلتحق بعالم الرصاص.

صوته الخفيض لا يخلو من حماسة وهو يقول:

- مدينتي تناديني.. تعز هي قبلة القلوب تحتضر تحت ضربات الأوغاد، إذا كان هناك خلود شخصي ففيها سأخلد حين أهبها روحي فداء، هذه الحياة التي نحياها لم تعد حياة يا أستاذ وحيد، نصف حياة يقبل بها ذوو نصف قلب، أما نحن فننزعها كلها أو نتركها تماماً.

الحياة كالحب لا توهب للضعفاء، لذا يداسون تحت أقدام الأقوياء دائماً، والمقاومون ينتزعون الحياة أو يموتون بكرامة، في الحرب والحب لا يصمد سوى الأقوياء، سأعود إلى تعز وألتحق بالمقاومة.

وابتسم ضاحكاً وهو يقول:

- ما زال لدي فرصة أن تملأ صوري الجدران والأوراق، وربما مؤخرات الحافلات والباصات الصغيرة، فقط لو التحمت بتربة تعز.

هالني فراق هذا "العيسى" المجنون، وتخيلته منطفئ الروح في وضعية تصوير لعشرات الهواتف والكاميرات، التي ترصد جسده البارد، وهو يروي تراب تعز بدمه.

ماذا يحدث في هذا العالم الأسود؟ هل أثبطه عن مسعاه فأكون حقيراً مرتين؟

مرة كوني هنا أهذي بالكلمات، أكتبها لمن لا يقرأون، ومـــرة لأني أحرم تعز ولدها البار.

لقد وجدتني أربت على كتفه مشجعاً وأحتضنه مودعاً.. ربما إلى الأبد.

هذه الانتماءات الطارئة على الإنسانية أحلت دماء بعض الناس لبعضهم الآخر، وحقدت نفوس المظلومين والمقهورين، فبات المـــوت هيّناً في عيونهم.

ربما عزاء عيسى أنه حصل على عشرات الصور في وضـــعيات قتالية تدعو للفخر وهو يرافق قائد المقاومة في تعـــز "حمـــود ســـعيد المخلافي"، عشرات الصور التقطها فريق إعلامي رافـــق المقاومـــة في تحركاتها، وكان من هذا الفريق أيضاً أروع الشهداء وأشجعهم، مثل "محمد اليمني" وغيره كثيرون.

حتى الفقر يا **صديقي - أحياناً - يكون لذيذاً بوجع كالحب من طرف واحد.**

إنها سماح..

لقد عادت إلى صنعاء بعد أن غادرتها كارهة، تبدو الآن كأنها في السبعين.. ليس تماماً، لكن حين رأيتها أمامي ذكرتني بجذوع الأشجار المعمرة، شعرها الحاسر الجميل كأنه يتساقط بنفس سرعة تساقط دموعها وهي تتذكر عمار، وعلى خديها الباهتين ارتسمت ظلال كلف بنية كأشباح قبلات محمومة باقية لا تزول، تغيرت كثيراً كنبتة نُزع لحاؤها، أو حياة نزعت روحها، حزن البعض كأعمارهم، يكبر كل يوم ولا يشيخ أبداً، يموتون فيوسدهم القبر.

بصمات اللوعة التي تعيشها ترسم ملامحها من جديد، كائناً مشوهاً دميماً..

كأنها ناقمة عليه كثيراً ليس لأنه غادرها، كلا، بل لأنه حولها لهذا الشيء عندما أخذ معه أشياء كثيرة تخصها، لقد أخذ برحيله لون الحياة من عينيها، شبابها ونضارتها، رغبتها في الحياة وكبرياءها، نزع رغبتها في الحب..

وكأنما تم تفصيل قلبها على مقاس حبه هو، على نمط كيانه هو..

كيف لحب ملأ ما بين الموت والحياة أن يموت كما مات صاحبه؟

حبٌ عجزت لغة القلب الفصحى عن شرح تفاصيله ولهفته، عجز عمرها أن يكون بدونه.

همستُ برهبة، وكأني أقف في قداسة محراب الحب الذي لم يفهمه عمار:

- كيف حالك يا سماح؟ لماذا عدت وكنت نويت خروجاً أخيراً، أو عودة حين تتحسن الأمور، كما ترين نحن للأسوأ رغم قصص الانتصارات والزحف نحو صنعاء للتحرير، وتولية الجنرال لقيادة هذا الزحف.

لاح شبح ابتسامة دامعة على شفتيها الضامرتين، ربما لأني كنت أقرب الأصدقاء لعمار، وأعرف قصتهما المحزنة، هي ترى فيَّ ذكرى تؤرقها.

- أنا بخير.. ما زلت على قيد العيش للأسف يا وحيد، فكرت أن أعود، كي أموت على ما مات عليه صاحبك، لنعش إن عاش هذا الوطن، أو لنمت إن كُتب عليه الفناء.

همست برثاء لنفسي قبلها، فأنا بلا عفراء، مثلها بلا عمار:

- عزيزتي سماح، ستعيشين وستلاقين حباً يليق بقلبك الجميل، فقط يا صديقتي حاولي، كل صعب يحتاج للمحاولة.

ارتسمت في عينيها نظرة ذاهلة، كأني صدمتها بقولي، حبه يبقيها راضية عن نفسها، ربما لو كان هو الذي ترك البلاد للمهجر، وبقيت هي ثابتة في أرضها كجذع شجرة لكانت كرهته، لكنه غادرها للنضال الصحفي، وهاجرت هي بعيداً ليأسها منه، فلما قُتل هناك شعرت أنها خذلته، وخذلت الوطن وكل الحقوق التي حاربت من أجلها.

إنها تشتهي حباً أكبر من حب عمار، ولا يوجد أعظم من حب الوطن وقضيته العادلة، سيغادر قلبها شبح عمار يوماً ما حين يمتلئ

بحب الوطن، الذي مات من أجله حبيبها.

في هذا الوطن الذي تحول فيه نشطاء الحقوق إلى تجار بها يترزقون من أوجاع الناس.

من الجميل أن تجد من يؤمن بعدالة القضية ويدافع عنها.

لقد أُثري الكثير بالمتاجرة بحقوق بؤساء هذا الوطن، وصارت صور الجوعى والقتلى تدرُّ الشهرة والمال أيضاً، والتنقل عبر الوطن بحرية أيضاً.

* * *

يا إلهي كم أعشق النوافذ الكبيرة جداً، تلك التي تملأ شقوق الروح الخاوية بالضوء، ولا تحرمك تفاصيل الحياة في الخارج، تلك الحياة مهما كانت سيئة، فهي أفضل من الموت في مكان مغلق بلا نوافذ واسعة.

ماذا لو لم تصنع لنا في هذه الأماكن الخانقة نوافذ؟ من أين سيتسلّل الضوء فاضحاً خيباتنا المستترة خلف الصمت والاعتياد؟

كيف لنا أن نرى كل هذا الغبار الذي يعتلي قلوبنا حتى تثاقل نبضها؟ تكاد تموت تحت ثقل السأم والشرود..

ابكِ يا وحيد.. ابكِ فقد أُغلقت كل نوافذ قلبك التي كانت مشرعة..

رسالة عفراء ممددة بيني وبين الأفق تحجب عني الحياة ولا تقتلني:

(وكأن الحزن طرد في طريقه كل فرح، فبات في جفوني يا وحيد. تذكرتك حين قلت لي: تبحثين عما يوهن قلبك يا عفراء، نسيت يومها أن أخبرك: أنت لا تعرف هذا القلب الواهن دوما بكل سبب، كيف تعرف وأنت غائب؟ وفي غيابك الطويل تعثر قلبي كثيراً بالخيبات حتى التصقت به، فبات ينكر الفرح خوف السراب، لم يسعفنا القدر، كي أقص لك كيف أصبحت قاصة أستشعر ألم الحكايات بخيال جامح لا يُحدّ، ربما هروباً من واقع ينزع قصصه من قلبي مكتوبة بالدموع، من لم يصنع من أوجاعه إحساساً بالآخرين

وأحزانهم فلن يشعر بشيء، أخشى ألا يمنحنا القـــدر فرصـــة أيضـــاً يا وحيد، كي نبكي كل ما فات في الغياب).

عفراء.. غادرْتك إلى البعيد بعد أن قتلتْك حباً وأوهاماً خادعة، عائلتك التي غادرتها أنت..

أمك العجوز وزوجتك التي شاطرتها كل شـــيء إلا روحـــك، أطفالك الصغار وابتساماتهم التي تمسح الدموع عن بعـــد، ووطنـــك الذي تطحنه الحرب، ولا نافذة أمل تطل على منعطف صدق من كل هذه المفاوضات التي تنتهي لتبدأ..

رفاقك.. الرفاق؟

كم غاب في الشتات؟ وكم غادر من أكثر أبواب الموت أناقة؟ باب التضحية للوطن.

الغربة والموت ينزعان الأصدقاء والأحبة.

صار الوطن قوة طاردة للجمال بحدوث كل هذا القبح.

الغربة نزعت عفراء من أحلامي كما نزعتـــها مـــن مدينتـــها الخراب.

آه يا عفراء وأنت في الغربة كم أعاني الاغتراب، ابتعادك مـــلأ صدري فراغاً، أشتاقك أحياناً فأعانق الذكريات، وأبكي على كتف الجدار، ولا شيء يملأ هذا الفراغ، قاسمتني الغربة قلبـــي حين غادرت نصف روحي هناك.

فهل تعودين والعمر لا يعرف انتظـــاراً؟ والـــوطن لا يـــدرك استقراراً؟

كلما أصبت بخيبة ما، أستيقظ من دوار وأنا أحاول ألا أتعثـــر بأحلامي المبعثرة داخل رأسي بوهم تذكرها، محاولة لملمة الذات تشبه

السير حافياً في الظلام، لا فرق لو كنت بحذاء.

أتأمل السقف القريب حد الاختناق وأدفعه بنظراتي مستجدياً بعض الهواء، كل السقوف التي يضعها البشر تنكمش بالأحلام وتتمدّد بالجنون.. إلا جنوني..

أوزع أيامي بين صمت ونقمة وثورة وكبت.. كل أيامي للانتظار.

كأنما كنت في رحم الانتظار وإليه وُلدت، أتنفسه هواءً فينمو عمري انتظاراً، ما أكثر الآمال التي تقتات الانتظار فينا!!

الوطن أيضاً سقف منكمش على هيئة سوط غليظ يجلد عشقنا الكبير له، يزداد وقع السياط كلما تعمق فينا هذا الحب، واندفعنا فيه أكثر..

قسم من أحلامي غير الناضجة أدفنها في القلب، وتلك التي نبتت لها أجنحة أرسلها في الهواء للضياع، فلا شيء حولها سوى الضياع.

الصباح يشرق على كل أرض، إلا على أرض وطن خراب يتساوى فيها الليل والنهار ظلمةً وسواداً.

كأننا على حافة حياة.. على حافة حب.. على حافة موت.

* * *

هل عليّ أن أستمع لخطبة جمعة يظل الخطيب فيها يصرخ بـــلا سبب في وجوهنا، يحذرنا من عقاب النار والشيطان الذي يتربص بنا في كل حين؟!!

ويتناسى هذا الخطيب أن شياطين الإنس، قد أصبحوا أكثر شراً وتربصاً من ذلك الشيطان الذي أصبح يشعر بالشفقة على حالنا؟

كثيرون في هذه الحياة لم ينالوا حقوقهم كاملة أو جزءاً يســـيراً منها، عاشوا مقهورين ومحرومين، لا أظن أن النار تنتظر أمثالهم.

لا، لن تنتظرهم إذا سرقوا رغيفاً أو ثمن رغيف، كـــي يشـــبعوا جوعهم وجوع أطفالهم.

النار أيضاً لن تنتظر ذلك الذي سرق قبلة من حبيبة لم تســـنح الحياة بوصلها.

هناك من يسرق الحب من حياتنا، ويغتصب أقواتنا كاملة، ولمثل هؤلاء النار تنتظر، فهم سينجون من عقابنا في الدنيا، ويعيشون حياتهم وحياتنا معاً.

قشور الدين تكاثفت، وحجبت جوهره العظيم.

أرواحنا تائهة تبحث عن قشة تطفو عليها، وما أكثر القش المعد للحرائق في الرؤوس.

الرجل الذي وقف عقب الصلاة يبكي بحرقة، وهو يشكو حاله وحال زوجته بعد اختفاء حفيدهما والمتبقي من أسرة ولدهما، الـــذي مات في حادث سير مع زوجته وطفلين آخرين، كانت أشد تأثيراً من

خطبة الجمعة، التي أثخنها التحريض ضد القتل والقتل فقط.

كان الرجل المسن يناشد الناس من يعلم عن حفيده خبراً، كي يدله شاهراً صورة لطفل لا يتجاوز الخامسة عشرة، وقفت كبقية الفضوليين بصمت، أستمع لحديث يدور بين المسن وشخص آخر يبدو من خلال حديثه أنه طبيب.

قال الرجل بصوت حاول ألا يكون مرتفعاً:

- وجدت في عدن أطفالاً ينهارون بكاء، وقد عجزوا عن العودة لأهاليهم في الشمال، كانت المليشيا قد جلبتهم للمعارك بطرق ملتوية، كإقناعهم أن المعركة نزهة وعودة من جديد، لكنهم فوجئوا بحرب تسيل فيها الدماء غزيرة، كانوا أطفالاً قد تم التغرير بهم بوسائل كثيرة، فأصبحوا بين مطرقة المليشيا وسندان المقاومة، إما أن يقاتلوا أو يُقتلوا، كثيرون انهاروا باكين برعب وخوف، وآخرون سلموا أنفسهم، والكثير قُتلوا وامتلأت الشوارع بجثثهم التي لا تُعرف لها هوية.

ازداد نحيب المسن، كأنما يرى بعينيه مصير حفيده المحزن، وهو الذي طالما تحمس للحاق بنفير المليشيا والذهاب إلى مدينة عدن للجهاد مع ربي كما حشوا الرؤوس الفارغة.

عدت عقب صلاة الجمعة إلى البيت، والحزن من كل شيء يثقل صدري، حتى المساجد التي كانت أماكن السكينة وملجأ الأرواح، صارت بؤر فتنة ودجل، أكثر من دور السينما لو وجدت.

بل إن دور السينما لن تفعل بنا ما تفعله المساجد من بث الطائفية وتأليب الناس بعضهم على بعض، لعل الشباب بحاجة لأفلام

عاطفية يتعلمون من خلالها بعض المحبة والتراحم، بدلاً من حشو عقولهم بمتفجرات الأفكار لقتل الآخرين.

المساجد في نظر أدعياء الدين وسيلة للترزق وطلب التبرعات، كانوا وما زالوا يسرقون جيوب البسطاء في محراب الله، وأخيراً يسوقون أرواحهم للموت من محراب الله أيضاً.

كلما اشتد ضيقي من قسوة الحال الذي يتفاقم سواده أفكر بعائلتي.

شهر رمضان على الأبواب، لقد أصبح التوتر والقلق رفيقين لا ينفكان عني، كيف سيمرُّ رمضان على عائلتي للمرة الثانية، وأنا مغترب في نفس الدولة، عاجز عن الاستقرار لديهم أو آتي بهم إلي، عزائي الوحيد أن هناك مئات العائلات فقدت مُعيلها إلى الأبد، وأن شهر رمضان لهذا العام سيكون شهر الصبر والجوع في أعنف صورهما، ويجب أن أقضيه مع أطفالي.

ينبغي أن أتدبر سبيلاً للسفر إلى مدينتي كالمرة السابقة.

***

في مدينة إب تنسى أي أهمية للوقت.

إنها رتابة العيش الممل مع الاحتلال، وتغوّل الفساد، وازدحام البشر المتزايد، أصبحت إب مكتظة حتى بالوجع، غير راغبة بالاعتراض على شيء، صارت "كقرص اللحوح" يسبح في قدر المرق رغماً عنها.

الناس ينتظرون فقط.

يتسمعون الأخبار ثم يرمونها خلف ظهورهم من أجل أخبار أخرى، خبر يقول إن انتصارات تعز ستصبح حقيقة، وإن عودة أركان الدولة لمدينة عدن سيستمر فعلاً، وإن عدن آمنة حقاً من إرهاب المليشيا الخفي والظاهر، وأن بنك الدولة الذي يطلب المعونة ليلاً ونهاراً أصبح قادراً على دفع مرتبات الموظفين المتأخرة لشهور.

لكن الأخبار تأتي أشد سواداً من سابقاتها.

عمليات التفجيرات الإرهابية تثير عواصف الرعب والتساؤلات في مدينة عدن، أحزمة ناسفة وانتحاريون في وطن لم يكن يعهد هذه الكثافة في الرعب.

أخبرني نازح من عدن أن قريبه الشاب المجنّد نجا من تفجير انتحاري.

لكن عقله لم ينجُ..

كانت الصدمة مزلزلة، وكان شاباً تفيض منه الحياة ضحكات ودعابات وسخرية مُرّة.

ذلك الصباح المشؤوم قال له رفيقه عبر الهاتف:

- .بما أننا سنتسلم الراتب اليوم الغداء عليك و"التخزينة" علينا.

فأجاب ضاحكاً:

- لا تقل أن عليَّ أن أغدي المجموعة كلها؟ أنت مجنون سيطير الراتب أشلاء مبعثرة.

اضطر أن يبقى بعيداً متخفياً عن الرفاق.

ووسط تجمهر الجنود دوى الانفجار.

مرت لحظات وهو ملقى لم يستوعب ما الذي حدث؟

وأخيرا نهض وقد التصقت بثيابه وجسده أشلاء ودماء رفاقه،

كان يجري في المكان، يبحث عن الوجوه المألوفة التي تهرَّب منها قبل لحظات،

يمد يديه ليلتقط بقايا تشبههم، ويصرخ بملء فمه:

- أنا عليَّ الغداء، هيا قوموا أنا عليَّ الغداء.

جُنّ فزعا أو حزناً أو وجعاً على رفاقه ونفسه وحال وطنه.

هذا ما يحدث في عدن التي تقطنها شرعية الدولة، بعد عودة أركان الدولة ورئيس البلاد، فماذا سيحدث في مدن تعيث فيها المليشيا فساداً.

هناك أخبار المجاعة تأتي من أخصب أرض في اليمن، تهز بمشاهدها الموجعة نواقيس الخطر في مخاوفنا المستترة وراء التندّر بسوء الحال.

تهامة أرض الخير يلتهمها الجوع، ونحن على مشارف انتهاء عام 2016 ومنذ سقوط الدولة بيد المليشيا، ها هي اليمن تزحف نحو مجاعة يكررها التاريخ في عهود الأئمة المظلمة.

إنه الجوع، سلاح الجبناء دائماً يسلطونه على الأغبياء والضعفاء فيركعون.

وها هي شريحة واسعة من المجتمع، تقع تحت ضغط العوز بدون دخل بعد نهب أموال بنك الدولة، فأي مصير ينتظرنا أشد قبحاً مما نحن عليه.

لقد أتى اليوم الذي لم يعد يصدمنا رؤية جائع يقلب في براميل القمامة، فكل بيت صار يأكل قمامته داخل البيت.

يكافحون الجوع بالمزيد من التندّر والفكاهة، وصبر عجيب يرفض حتى التفكير بثورة مضادة للانقلاب، قال لي صديق يلاحقه المؤجر كل يوم بسبب عدم دفع الإيجار:

- المؤجر يرفض الاقتناع أننا بلا دخل بعد قطع المرتبات لشهور، ويصر على أنه ما بعد قطع الراتب إلا ثورة، أخبرته أن هؤلاء الهمج يعتبرون المطالبة بحقوقنا الوظيفية خيانة عظمى، يطيح على أثرها رأس المطالب، هؤلاء أتوا من الكهوف يسرقون كل حق، ويقتلون من يطالب بحقه.

حتى رغبة الاحتجاج سرقوها من أفئدة الناس.

لم يكن أحد ليصدق أن يصمت الناس خوفاً من همجية المليشيا، فلا تخرج مظاهرة احتجاجية واحدة ضد قطع مرتبات الموظفين والعاملين، أو حتى غلاء المعيشة الفاحش، أو حتى انعدام الغذاء والدواء، وتفشي الأوبئة كالكوليرا، وأخيرا حدوث المجاعة بكل قبحها.

كان هناك خنوع عجيب داخل المدن المحتلة، يجعلك تتعجب أين ذهب الإباء والكرامة اللذين نتشدّق بهما دائماً.

✳ ✳ ✳

من جديد أنا في إب أتجرع مذاق غربة أخـــرى في اغترابـــــي الطويل.

أحاول تذكر الابتسامة كي أبتسم، أناشد الصـــباح القـــديم أن يعود محملاً بابتسامات الرضى، وأناشد الحياة حولي أن تبتسم.

ابتسموا أيّها الناس.. ابتسموا كابتسامة الشاب الجميل "أسامة العامري" الذي ارتقت روحه على سرير المستشفى، بعد إصـــابة بليغة في مقاومة تعز، لقد أصر على الابتسام لوالدته حـــتى آخـــر لحظة، كأنه يدرك أن ابتسامته من ستبقى عالقة في أذهان كل من تابع صفحة والدته على الفيس بوك، وهي تبكي إصـــابته، وهـــي تدعو له بالشفاء.

ثم وهي تنعى شاباً كانت ابتسامته أجمل من أن تبقـــى في هـــذا العالم شديد العبوس.

ابتسموا للصباح أيها الراقدون في أسرّتكم الدافئة، أيها الأنيقون في ثياب العمل، أيها المتململون من برد الشتاء، فلهيب الحرب يحرق أجزاء أخرى في هذا الوطن.

ابتسموا.. فعلى الرصيف المقابل للحياة يوجد أسعد التعســـاء، متسول في ثياب رثّة يبتسم للصباح بأمل، وعليه عامل نظافة يصافح الرصيف مبتسماً كل يوم بلا كلل، وعلى الرصيف أيضاً طفل صغير يجمع علب البلاستيك الفارغة، ويبتسم بسعادة لكل علبة يجـــدها في طريقه.

ابتسموا للصباح، فكل صباح يحمل أملاً يدق أبـــواب قلوبنـــا بحب.

هذا الصباح جاءتني رسالة عبر الإيميل من عفراء، كأن حروفها تتوسل فقط:

(أنا في عدن، هل أراك يا وحيد؟).

وكأنها أيقظت مشاعر الرجل التي خنقتها الحياة.

هل نسيتها حقاً أم كنت أعذب نفسي بنســيانها بكـــل هـــذه الأحداث والهموم.

عام ونصف العام يا عفراء تنقص قليلاً منذ افترقنـــا، ومـــا زال طيفك الأسمر الدافئ يغزو أحلامي أكثر من خيال زوجتي.

ما زلت كطفل منهك الرغبات، ألجأ إلى طيفك أضمه، كي أنام وأشعر بالدفء.

كطفل تمنى الحصول على طائرة شراعية يحلق بها فوق الغيـــوم، لكنه سقط في واقعه المحتوم.

تهفو إليك نفسي كالظامئ مهما يتجرّع من الوهم لن يرتوي، كلما صادفتك في حلم يقظة تمنيت النـــوم كـــي أراك حقيقـــة، وتأتين.. تأتين كشمس دافئة تذيب ثلوج شـــعوري تهمســـين في أذنيّ:

- ضمني إليك يا وحيد، لم أعد تلك الفتاة الدافئة كشـــمس مدينتي الجنوبية، أصبحت أشعر بـــبرد الخـــوف، برجفـــة المجهول، ورغبة الأمان تتصاعد من داخلي، تعالَ وضـــمني إليك، دع أنفاسك تدفئ صدري الفارغ إلا مـــن شـــوق وانتظار.

وأتلوى في حلمي، أبحث عن ساعدين كي أضمك، فلا أجـــد سوى عجزي، فأغمض عليك الجفون كي لا تختفين.

ترى لو كنتِ حقيقة قربـــي هل يبقى هذا التوق للتلاشي فيك؟

أي شيء هو الشوق والحنين، حين يستيقظ في صدري بحـــرف منك، لماذا استيقظ الشوق كمارد من رماد اليأس؟ وهل حقـــاً أراك وتضمك العيون وتخفيك الأهداب؟

حين رحلت وأيقنت أننا قد لا نلتقي مرة أخرى، مات أجمـــل جزء في قلبـــي يا عفراء.

في كل رحيل لصديق أو موت لعزيز أفقد جزءاً من قلبـــــي، لكن رحيلك كان الأكثر وحشة وعراء في روحي.

لا أسوأ من العجز يا صديقتي، إنه مرادف اليأس المرّ، أنا أتجرّعه منذ طفولتي وجبة يومية أتلقفها جائعاً، ولا أعرف أني شبعت يوماً من عجزي، وأنا المثخن به دوماً.

منذ الطفولة لم تكبر أجنحتي، فكنت فرخ بط يخيل إليـــه أنـــه يطير.

كيف أطير في قفصي؟

هذا القفص الذي حاكته الحياة من ضلوعي أنا، من وجـــودي المتعثر دوماً بكوني أنا..

ها أنا أهذي كعادتي كلما جرفني الحنين إليّ، أكلم نفسي دائماً:

تعالَ يا وحيد، تعالَ نتحدث قليلاً كغريبين على قارعة الطريق، أنا لا أعرفك يا صديقي، لا أعرف ماذا تريد؟ وأي حـــزن عظـــيم يصلب روحك كل العمر دون أن يدفنها في الغياب، هذا الحب الذي هو أنت لماذا أشقاك هكذا؟ أليس الحب جنات ورد وعبير عند كـــل

عاشق؟ لماذا الحب في حياتك إعصار يمر بك ليتركك خاوياً من أمل؟

عشقت وطنك فبقيت تحمله على ظهرك حملاً ثقيلاً، هو الذي تعرّق في روحك وعقلك، وصار الفصل بينكما مستحيلاً، صار هو العائلة وعفراء والماء والهواء وأنت يا وحيد.

ماذا لو حملت أمتعة الحياة من أحبة، ورحلت إلى حيث تبدأ من جديد؟ يا شجرة بُنٍّ عتيقة ضربت جذورها في عمق الوطن؟

ماذا لو اخترت الطريق السهل وهو الأصعب؟

الهجرة من وطن يحاصر أبناءه مرتين، مرة بفعل حصار الحرب، ومرة بحصار الفقر.

أصبح البؤساء منهم تحت رحمة الوضع الذي فُرض عليهم ولا يوجد بديل غيره.

عاجزون عن الهجرة خارجه، مشردون بالنزوح في أرجائه، يلتهمهم الفقر والجوع والحرب بالتوالي، فمن نجا من قاتلٍ انتزع روحه آخر.

وأنت المحكوم بحال الوطن كأي فرد فيه ينهشك العجز من كل صوب، صرت معدماً بعد دخل كان يقيك الحاجة والفقر وذل السؤال، صرت مطارداً ومشرداً بعد أن كان فضاء الوطن مسرحاً لقلبك وقلمك، صرت محاطاً بالشقاق حتى بينك وبين قلبك.

لقد ضجّت الهموم في رأسي، وصار أثقل من جبلٍ بين كتفيّ، صرت أحادث نفسي بصوت يفلت مني أحياناً ويعلو في المسامع من حولي، فخفتُ الجنون الذي طالما وُصِمت به.

فهل كل الناس مثلي؟

لا يستطيعون البقاء في رؤوسهم بمفردهم مع الصمت؟

هل رؤوسهم حافلات ضخمة فيها مئات الحوارات المشتتة بلا رابط صلة؟

هل رؤوسهم مكتظة بأحداث أغلبها لم يحدث ولـــن يحـــدث؟ فقط هكذا تحدث في رؤوسهم كرد فعل لحدث يكون أول خـــيط لتاريخ من الأحداث لن تحدث؟

هل يشعرون بالضيق مثلي من رؤوسهم؟ فيفكرون بوضعها على مخدة السرير كي تنام ولو قليلاً؟ هل يفكرون بضربها بالجدار مثلاً؟

لقد تعبت من هموم فوق همّي.

سامحيني يا عفراء، رسالتك تسحق أوردتي وتخنق أنفاسي، فهل آتي إليك في عدن؟ هل أترك كل الوطن خلفي وأسير خلف قلبـــــي في شرعية وهم؟

حبك كحلم الدولة على أرض الوطن، وهم فقط إذا كان عـــبر الكلام فقط.

هل أتجه إلى مأرب حيث الحرب من أجل تحقيق هذا الحلـــم؟ حلم الدولة الشرعية؟

أم أبقى هنا كي أمضغ الكلمات بلا جدوى.

قرّر يا وحيد..

إن كان على معصميك قيد من حديد، فهل تقرأ عليه قصـــيدة عن الحرية كي يلين، وهل يفهم الحديدُ القصيد؟

أم تزينه بالزهور والورد والرياحين، أم تتلو عليـــه نصوصـــاً في الحكمة وترك الآخرين.

القيدُ قيدٌ من حديد، ولا يفلّ الحديد إلا ضربة من حديد.

* * *

"لقد أمسكوا بأحمد النويرة".

رسالة من بضعة حروف مزقتني أشلاء، لم تكن حروفاً بل قنبلة تحتوي على عشرات الشظايا أحالتني إلى كومة إنسان يفتته الحزن..

لقد اعتقلوا أحمد الذي طالما وفّر لنا الأمان في تحركاتنا وأماكن إقامتنا، ترصدوه طويلاً وقبضوا عليه، فانقبضت أرواحنا حزناً وصدمة ويأساً.

هؤلاء الوحوش يعذبون الصحفيين بلا رحمة، وما زال العشرات يقبعون في معتقلات وحشية بلا أمل في الخروج منذ ما يقرب العامين، ما زال ابن إب "أمين الشفق" معتقلاً بسبب مسيرة الماء منذ أكثر من عام، وحتى هذه اللحظة من بداية عام 2017.

عام كامل ما زال في قبضتهم الوحشية، لأنه فكر بالمشاركة بحمل الماء لمدينة تعز المحاصرة.

ما زال "محمد قحطان" القيادي البارز في حزب الإصلاح وأبو الصحفيين مغيباً منذ عامين تقريباً لا يعرف مصيره.

ما زالت قصص التعذيب والإهمال، وتردي صحة المعتقلين تتسرب خارج أسوار المعتقلات، فيزداد الناس خوفاً من فكرة اعتقال قد تغيبهم وتشرد من بعدهم.

وما زال أهالي المختطفين ونساؤهم يُعاملون بمنتهى الإجرام على أبواب المعتقلات، تمتهن كرامة النساء حد الاعتداء بالضرب عليهن دون وازع من خجل أو عُرفٍ قَبَليّ ومجتمعي.

يعامل المخطوف من بين أهله كأسير حرب، وكفريسة صـــيد، يتم نهش الأموال من أهله حتى وإن كانوا معدمين.

لقد مثل المعتقل وسيلة رزق لمليشيا لصوص الله، ووسيلة لمبادلة أسراهم ممن هم من سلالتهم العنصرية فقط، أما أبناء القبائل، فهم إما أسرى عند شرعية الدولة، وإما قتلى تأكلهم الكلاب، فلا كرامة حتى لجثامينهم.

لقد أخذوك يا أحمد..

أخذوك يا صديقي، وأنا هنا في مدينة إب بفضل تدابيرك الأمنية لي كل مرة.

أخذوك في غفلة منك يا صديقي الشـــجاع، وإلا مـــا كـــانوا ليفعلوا..

كيف ستكون صنعاء دونك يا آخر الأصدقاء في أرض الخراب هذه؟

كيف تطيب لي عودة إلى صنعاء يا أحمد؟

وإلى متى أظل نهـــاري أتلقـــى أخبـــار الـــراحلين والشـــهداء والمختطفين؟

فإذا أتى الليل أبقى وحيداً..

أحاول ألا أكون هذا الوحيد، فأدعو أحبة راحلين، أنـــاديهم، أدعوهم من قبورهم، فيملأون فضاء الحجرة بذاك الوجود، يسندون ظهورهم إلى جدار السرير، ويغطون أقـــدامهم بلحـــافي القصـــير، ويضعون رؤوسهم على وسادتي.

تضيء عيونهم المنطفئة ظلام الحجرة، ونتبادل الحديث الحـــزين حتى الصباح.

وفي الصباح تزف البشرية أفواجاً أخرى لـــراحلين في الـــيمن وغيرها.

أخبار مجازر حلب تُوسعنا عجزاً وذلاً، ورغم ذلك ما زال هناك من فقدت إنسانيته بوصلة الشعور، فتخبطت بين مناصرة قاتل وإدانة ضحية.

بين الشعور بهموم الإنسانية وبين الإحساس بهمومه السطحية.

ما زال هناك مترفون يشـــوهون خارطـــة الوجـــع بتفاهـــات شكواهم!!

يزاحمون المقهورين حتى في مفردات الألم.

تتلوى ألفاظهم في وصف رفاهية ما يعـــانون كمـــن يشـــكو للجوعى إفراط الشبع،

أيها المتخمون من معاناتنا، دعوا قداســـة الألم بعيـــداً عـــنكم، فاهتماماتكم الموجعة لكم لا ترتفع أعلى من السرّة رغم أنكم تحددون موضعها في القلب، هناك من ألجمه الوجع و لم يكتبه قصيدة حـــب، بل كان فاجعة موت وقتل، هناك من أنهكه الجوع فصمت انتظـــاراً للموت، وليس انتظاراً لعونكم، هناك من فقد الأم والأب، و لم يقف على قدميه بعد.

هناك من تشرد عن أرضه، ولا أرض له في أي قلب.

* * *

أولئك الذين قالوا سنبقى معاً وغفلوا الموت،

كيف غافلتهم الحياة وتقلباتها!!!

مأرب هل كانت ذلك الابن البار الذي شيطنته زوجة الأب الظالمة، وسلبته كل حظوته لدى الأب الغافل عما يدور في بيته، ونهبت في طريقها لإقصائه عن العائلة، وتشويه صورته كل ما يملك من ثروة خاصة؟

ذلك الابن النبيل الذي قبل القليل مما تجود به من نصيبه في ثروة العائلة، والذي حمل تاريخ هذه العائلة على كتفيه منذ الأزل.

هذه ليست أسطورة إغريقية، بل هي قصة مدينة يمنية.

نعم هي مأرب، مدينة التاريخ والحضارة، وشهامة القبيلة، التي شوهها نظام كان هدفه تمزيق روح الوطن الواحد، وإن أشاع أنه صانع الوحدة وباني الوطن.

مأرب خلال أشهر تضاعف سكانها أضعافاً مضاعفة حين صارت قبلة وملجأ لمئات الفارين بحرياتهم من الاعتقال، ومعقلاً لكل الطامحين في النضال بالسلاح وبالكلمة ضد المليشيا المنقلبة على الدولة، وكما حملت في أحشائها حضارة اليمن القديمة، ها هي الآن تلد المستقبل والحرية على يد أبناء قبائلها، وأبناء اليمن من كل أطرافه البعيدة.

مأرب التي ما زالت تعاني الإهمال، وإن صارت معاناتها مختلفة، فمن قبل كانت خيراتها تنزع منها، لتعاني التهميش والتجهيل بها والتشويه المتعمد.

الآن هي تعاني من الازدحام الذي حدث بسبب الارتفاع الكبير للسكان، والذي يحتاج إلى عمران وبنية تحتية، تناسب هذه الزيادة المطردة من السكان.

انعدام الخدمات والمرافق من مدارس ومستشفيات وفنادق ومساكن، وارتفاع مهول للمعيشة، جعل الأمر عسيراً على الجميع، كأنه مخاض متعسر لولادة المستقبل.

هي الآن جديرة بالتفاتة الدولة الشرعية لها كعاصمة للحرية والحضارة والمقاومة، جديرة بتحسين وضعها كمدينة استقبلت ما يزيد عن مليون إنسان، هم سكانها الإضافيون.

جديرة بأن تعوض تنموياً وإعلامياً بعد التهميش السابق، فقد صارت قلباً لليمن ينبض بالمستقبل الواعد.

لطالما تمنيت أن ألحق بكل الرفاق إلى هناك، كلما سطر أحدهم رسالة تصف لي حماسة العمل من أجل النصر تاقت نفسي إلى الذهاب.

لقد توجه إلى مأرب أغلب الصحفيين والإعلاميين، و لم يتبقَّ بين أزقة الحصار سوى المغامرين بأرواحهم وحرياتهم.

بين معاناة الحيرة، هل أتجه إلى مأرب أم إلى عدن، تصلني رسائل الرفاق بضرورة اللحاق بهم، وأنهم سيعدون كل شيء لرحيلي، بلا خوف من اعتقالي في الطريق إلى الحرية.

كان عليَّ فقط حفظ بعض المعلومات عنّي، كون الذين يتلقفون المسافرين في نقطة "أبو هاشم" الشهيرة ليسوا أفراد ميليشيا عاديين، بل ضباط مخابرات مدربين على التقاط المشبوهين من المقاومة أو الصحفيين.

لحسن الحظ أن هويتي الشخصية لا تحمل لقب الأسرة، الشيء الذي كان يؤلمني يوماً صار مصدر راحتي الآن.

وأنا في طريقي إلى حضرموت للعمل عند أحد التجار الكبار الذي زودني برقم تلفونه الرفاق في مأرب، والذي تواصلت معه أيضاً في مكالمة هاتفية لتأكيد الأمر والتعارف.

الترتيبات بالغة الدقة تبدو مخيفة قبل أن نعرف الخوف من بطش من لا يعقل.

تحت إصرارهم وتوصياتهم تخلصت من كل شيء يخصني في هاتفي، كل برامج مواقع التواصل، وحتى رقمي الخاص، كل ما أبقيته صورا لأطفالي وبعض الأمور التي لا تضر بي، أو تدل على أنني كاتب صحفي.

أكثر ما يصدمني هو عجزي عن حمل جهاز اللابتوب تحت أي ذريعة، إن تعلقي بهذا الجهاز الصامت أشبه بصداقة قلبية لا يدركها أحد.

الأيام التي تلت قرار السفر كانت مؤلمة لقلبي، وكأني أرى أبنائي وزوجتي وأمي لآخر مرة، ولن ألتقي عفراء أبداً.

تغيير المظهر أمر آخر مهم جداً، لذا تركت لحيتي تنمو بلا تنسيق، وحلقت رأسي أيضاً، وجربت ارتداء "المعوز" طوال الوقت، كي أتعود عليه مع قمصان تكفل الزمن باهترائها.

كان يوم الجمعة موعد السفر.

وكان اليوم الذي وُلدت فيه، وفيه تحدث أكثر الأمور تعباً وتعقيداً لي منذ وُلدت.

في محاولة بائسة مني، حاولت أن أقضي الأسبوع الأخير مع

عائلتي وتعويضهم عن غيابي الطويل الذي مضى، وعن غيابي الأطول الذي سيأتي.

إنني أرى في عيونكم المستقبل أيها الصغار، وأنتم تلعبون لاهين عما يحدث في عالمكم من ظلم واستبداد، أنا استمد الأمل منكم، من نظراتكم البريئة، وضحكاتكم التي ستعلق في أذنيّ دائماً.

أنا أثق في هذه الزوجة التي حاصرتني بحبها، إنها ستحاصركم بذات الحب فتكبرون على حب.

حل يوم الجمعة..

عبثاً ألملم شظايا نفسي في قبلات على الوجوه الدافئة، عبثا أستمد من أمي صبرها العظيم، عبثاً أواسي زوجتي فقدها لرجلها الذي لا تعرف متى تلتقي به مرة أخرى..

اعتذرت إليها بعناق أخير عن عالمها الجميل الذي خسرته وصبرت من أجلي وأجل الصغار.

أعتذر إلى نفسي عن هذا التشظي كوطني..

وأحاول أن أهمس في قلوبهم أنني سأعود ويعود الوطن من جديد.

* * *

كانت السيارة من نوع "الهيلوكس" ذات المقعدين، كنت أنا والسائق الذي يقوم بتهريبنا، وشخص آخر نحيل جداً ومتوتر أيضاً في مقدمة السيارة، وفي الخلف عائلة من رجل وزوجته وثلاثة أطفال.

السائق معروف لدى الرفاق هناك في مأرب، وقد هرب الكثير من الصحفيين عن طريقه وبواسطة سيارته، قال لي السائق ضاحكا:

– أصبحت النساء أفضل وسيلة عبور آمنة نوعاً ما يا أخ وحيد، أحيانا نصادف في النقاط الكثيرة في طريقنا ممن لا يزال يراعي فكرة العيب الأسود وأعراف القبيلة، رغم أنهم لم يعودوا يقيمون أي وزن لأي عُرف.

كان انطلاقنا من مدينة إب إلى مدينة ذمار سلساً رغم الإرهاق النفسي الذي تكاثر عليَّ منذ توارت بنايات مدينة إب في آخر منعطف في الطريق إلى قاع "السحول".

وادي "السحول" المترامي الأطراف، والذي كان فيه أكبر مزارع الحبوب بأنواعها وأكرم الناس وأسخاهم، كان يعد نجاة الناس من الجوع، وقد قال عنه "علي ولد زايد" الفيلسوف اليمني الشهير في آثاره:

"إن كنت هارب من الموت
ما أحد من الموت ناجي
وإن كنت هارب من الجوع
اهرب سحول بن ناجي".

الآن ما زالت السحول خضراء طوال العام، إنما بشجرة القات التي حلت بدلاً من زراعة الحبوب، ورغم أني أمارس عادة التخزين كأغلب مثقفي اليمن، ورغم عدم عدائي لشجرة القات، إلا أن حزني لاستيلاء هذه الشجرة على كل السهول الزراعية التي ربما كانت تكفينا الفاقة والجوع الذي أصبحنا نحيا تفاصيله حقيقة، وليس في الأمثال التي توارثها الناس عن أزمنة ذاقوا فيها الجوع والفاقة لنفس السبب الذي يحدث من جديد.

أخبرني السائق على انفراد، ونحن نتأهب للانطلاق خروجاً من ذمار، بعد أن تناولنا الغداء في أحد مطاعمها المتواضعة:

- الآن ستبدأ كثافة النقاط الخاصة بالمليشيا، وإن تجاوزنا نقطة "أبو هاشم" الشهيرة بسلام، فقد أنهينا الرحلة تقريباً.

هززت رأسي موافقاً دون أن أهمس بكلمة، لم أتبادل الحديث مع الرجلين الآخرين طوال الرحلة، كل منا لديه حديث صاخب مع نفسه تبوح به نظرات قلقة، كلما عبرنا نقطة تفتيش تنفضك ككيس من النايلون.

وصلنا نقطة "أبو هاشم" ذائعة الصيت، والتي تتصيد الأحرار والأبرياء، لمجرد الاشتباه ليزج بهم في المعتقلات، بعد إهانات بالغة يقادون ليتم إخفاؤهم عن أهاليهم، معرضين للتعذيب والمساءلة عن علاقتهم الافتراضية مع الجيش الوطني والمقاومة.

فإذا يئست المليشيا من أن وراء الشخص أمراً مهماً أعادوه إلى أهله بيعاً بمبالغ هائلة، أو ميتاً بعد التعذيب الوحشي الذي يلاقيه على أيديهم.

كنت قد تعودت قيلولة النوم عقب الغداء، إلا أن لكزة السائق لساعدي، جعلتني أفتح عيوناً محمرة مبهورة، لتطالني سحنة المجند بذلك الشكل الذي أصبح معروفاً لنا بعد أن هبطوا علينا ككائنات فضائية بدائية.

نقطة "أبو هاشم" عنق الزجاجة لرحلتنا، كما تخيلتها لكثرة أحاديث الناس المتناقلة عن شدة التفتيش فيها، وتمادي الإهانة للناس ذكوراً وإناثاً.

ازدحام السيارات وباصات النقل جعل المكان غاصاً بالضيق لأول نظرة.

تم إخراجنا من السيارة جميعاً حتى المرأة والأطفال، وبعد نبش كل شبر فيها تم تفتيشنا بشكل دقيق، وبأصابع خبيرة لا تعرف الخجل.

أسئلة دقيقة توجه لكل شخص على حدة ونبش للهواتف والجيوب، ثم انتظار محرق للعبور.

صوت صفعة مبالغ في رنينها على صدغ رجل بدا كأنه تلقي رصاصة وليس صفعة، صوته الخانع وهم يجرونه إلى خيمة كبيرة يدل على أن الضباع ستأكل من لحمه حتى تشبع.

أن ترى رجلاً يُهان أمامك وتصمت، فأنت أول من سيشك برجولتك أو إنسانيتك، الغصة التي تصاعدت إلى حلقي كتمت أنفاسي، فصار تنفسي تشنجاً مبحوحاً.

أمسك السائق بمعصمي المتكور بتشنج وهو يهمس:

- هذا أمر طبيعي جداً هنا، ونحن لدينا وجهة يجب أن نصلها فابتسم أرجوك.

ابتسم!!!

إنه الوجع الذي يجعلك تقهقه ضاحكاً أيضاً، الإنسان في هـــذا الوطن أقل مرتبة من هذا الحمار الذي يعبر النقطة واثق الخطوة يمشي ملكاً.

ونحن نستأنف الرحلة بعد ساعات انتظار، أغلقت أذنيّ جيـــداً، كي يختفي صدى تلك الصفعة في وجه رجل بريء أثـــارت براءتـــه شكّ الوحوش، أغمضت عينيّ جيداً كي لا تسطو نظراته المصـــدومة المهزومة على الطريق الممتد قبالتي، أو ربما كي لا أرى عجزي الدائم حول كل شيء يحدث أمامي لتعذيبـــي.

* * *

كثرة نقاط التفتيش طوال الطريق من مخرج مدينة "ذمار" وحتى الوصول إلى منطقة "قانية" التي يقع جزء منها بيد شرعية الدولة، كل هذه النقاط تشعرك بالثقة أحياناً، كأنك تتعود هذا السعار البشـــري للبحث عن حقيقة نسبية.

على يمين الطريق كانت تقع قلعة العامرية الأثرية، والتي تكـــتظ بالأسلحة وبالمعتقلين الأبرياء، وبين فترة وأخرى تصبح هدفاً لطـــيران التحالف، الذي يتراجع عن قصفها بعد ثبـــوت وجـــود عشـــرات المعتقلين من المدنيين الأبرياء داخلها.

دأبت المليشيا على وضع المعتقلين دروعاً لها في مخازن الأسلحة بكل جبروت وقسوة منذ أول أيام قصف التحالف قبـــل عـــامين تقريباً.

لقد ذهب في مدينة ذمار ضحايا لهذه الطريقة المتوحشة كثير من الصحفيين الأبرياء، الذين لن تنساهم ذاكرة زملائهم وأشهرهم "عبد الله قابل" و"يوسف العيزري" اللذان قضيا مع رجل السلام في مدينة إب "أمين الرجوي" وآخرين في قصف لمواقع أسلحة كانوا هم دروعاً بشرية مقيدة هناك بلا رحمة أو إنسانية.

تجاوزنا منطقة "السوادية" انطلاقاً نحو "قانية" هناك حيث تبـــدأ نقاط المقاومة بعد اختفاء نقاط المليشيا تدريجياً، وحيث ستنزل العائلة كما أخبرني السائق.

كان النهار يودعنا لتلتهمنا الصحراء ليلاً.

ترجلت العائلة في سوق قانية المزدحم وكذلك الرجل الذي بجواري، ورغم أنه لم يكن بنصف حجمي، إلا أنني شعرت بالراحة لاستيلائي على المقعد كاملاً.

تزودنا ببعض الأشياء الضرورية والماء، وانطلقنا نحاول إدراك خيوط الشمس الأخيرة، وهي تسحبها رويداً رويداً من بين رمال الصحراء التي اكتست بلون داكن بعد انسحاب الشمس.

إنه هدوء الصحراء والليل إذا اجتمعا قضيا على سكينة النفس، وبعثتا حنيناً عارماً كعاصفة رملية لا تبقي ولا تذر.

الصمت بعد هديل الأطفال الثلاثة يبدو خانقاً.

هل غفوت؟!!.. كأنني أسمع صوت مكنسة من القش، تكـــنس أمام دكان الشاب عاطف المقابل لنافذتي في عمـــارة أم نـــاجي، لا ليست مكنسة الشاب عاطف صاحب النظارة التي لا تســـتقر علـــى أنفه.

إنها مكنسة أمي المصنوعة من سعف النخيل، وهي تزيح بقايـــا الخبز المحروق من على جدار التنور، نعم إنني أشم خبز أمي.. وأسمـــع صوت أمي تصرخ.. وحيد.. وحيد.

و لم أعد أشعر بشيء حتى الألم..

سأغفر لك يا موت.. سأغفر لك كل شيء..

سوى أني لم أسمع صوتك قادماً حين الرحيل.

* * *

لولا الحزن الذي يعتصر من يحبوننا حقيقة، لكان الموت أجمل النهايات السعيدة للحياة.

مر وقت طويل كأنه عمري الأربعون..

هل أنا على قيد الوعي؟

يبدو أن حادثاً وقع لنا حين سرقتني مني غفوة؟

هل هذا جسدي الممدد فوق روحي ثقيلاً يعجزني عن الحركة وحتى الأنين؟

هل هذه الحفرة في الرمال صدر أمي؟

هل هذا أنا من يحتضر وحيداً في صحراء العمر والوطن؟

لم يحن الوقت بعد يا وحيد كي ترحل..

ما زالت في العمر أمور عالقة تنتظر قلبك الدافئ، لا تجعله يصمت، هيا انبض يا قلب وحيد.

ليتني لم أعرف نفسي، فإذا همّت بالرحيل لا أفتقدها في هذه الصحراء.

"أني أتعثر بالموت يا أمي للمرة الثالثة، وحيداً للمرة الثانية، ففي المرة الأولى كان صدرك بقربي يبكي ويمدني بالنبض، حتى أفاق قلبي من غفوته".

أنا ملقى على ظهري هنا، فاغر العينين، أرى النجوم وكم تشبه كل أحبتي الراحلين، وجوههم تضيء عتمة الوطن، وتثقل عتمتي بالشوق والحنين.

كلهم هنا، فخري، عمار، عيسى، طارق، وأحمد النويرة، هـــل مات أحمد؟

يا إلهي يكفي الحنين لكل هؤلاء، إنه يقتلني وليس حادث سير.

ما كان أقربني من ذات حلم يبدو أننا لن نلتقي.

سامحيني يا أمي، فمنذ ولدت لم أزرع في عينيك سوى القلـــق، وأخيراً هذا الحزن بلا مدى.

سامحيني يا رفيقة العمر، سأترك لك حملاً يثقل القلب.

سامحيني يا عفراء، يبدو أن حلم اللقاء أعذب مما قد يمكـــن أن يحدث.

سامحني أيها الوطن الجريح مثلي، عجزت كعادتي أن أدافع عنك، أو أصنع من أجلك مستقبلاً، أو حتى أطهر جراح الماضي مما علق به.

أنا بخير.. كميت ترك الحياة وأوجاعها خلفه ورحل.

وحيداً هنا.. أنزف الحياة حتى تشرق الشمس.

لن أنحو يا إلهي ما دامت السماء بعيدة كأمي

النجوم وجوه رفاقي الراحلين.

حبات الرمال تبكي دمي،

تبلّل جراح عنقي،

قم يا أنا، ما زالت في العمر أمور عالقة،

كيف تموت وفي صدرك قلب ينبض بالأمل؟

انتهى الجزء الأول

بحمد الله

http://t.me/almaktba / المكتبة الثقافية